

توما هوك

صالح جبار خلفاوي

الكتاب : **توما هوك** (رواية)

المؤلف : **صالح جبار خلفاوي**

الطبعة الأولى : **القاهرة ٢٠١٤**

رقم الإيداع : **٢٠١٣/١٠٨١٣**

التقييم الدولي : **6 - 153 - 493 - 977 - 978 I.S.B.N:**

الناشر

شمس للنشر والإعلام

٨٠٥٣ ش ٤٤ الهضبة الوسطى-المقطم-القاهرة

ت/فاكس: ٠٢٢٧٢٧٠٠٠٤ (+٢) / ٠١٢٨٨٨٩٠٠٦٥ (+٢)

www.shams-group.net

تصميم الغلاف : **إسلام الشماع**

حقوق الطبع والنشر محفوظة

لا يسمح بطبع أو نسخ أو تصوير أو تسجيل
أي جزء من هذا الكتاب بأي وسيلة كانت
إلا بعد الحصول على موافقة كتابية من الناشر



توما هوك

رواية

صالح جبار خلفاوي

عانيثُ الكثير.. أقبل العيد، وأفكاري تنضح من ثقب ذاكرتي المعطوبة، أيقنثُ أنّ اللّيلة ليست مثل باقي اللّيالي؛ لأنّ الإحساس داخلي ينجب قلماً ميكراً.

حينما يصل عمري الأربعين، أبدأ بممارسة حياتي بنمطٍ هش يخشى الانحدار، وتصبح الزغاريد نوعاً من الإسراف المخجل، لكنها وحدها من أسرتني بقوامٍ يحرك ذرات السكون داخلي مثل زوبعة لا تنتهي.

بقيتُ مشنئاً بين مناسبة العيد، وطغيان هاجسها المنثال أمامي مثل صرخة أطلقها في البراري بلا رجع صدى، لكنها أثمرت بوحاً يتمراً بلا ندم، يكشف عن ألمٍ في صدري أحسبه الحب.

تدفعني المقاهي بنوبات الذعر حتى أنسى الخوف، معتمة دوائر ضعفي، هزال بدني يفضح اضطرابي لكنها اكتشافي الجديد، خرجت من برعم ليلي نسغاً يشع لتزيح أدماني السيئ لخزين موجع، يتكرر تلقائياً لأستسلم لتوتر يرتجف تحت وابل ثقتي، أحببتُ ممارسة ملاحظتها في هذا العمر الناضج، أراها تسير بتؤدة ألحقها، والارتجاف يغزو أعضائي، ومهام الحب تنتشر مثل رائحة عطر تشدني.

استدارتُ، لمحتُ عينيها وهج يبرق، ابتهجتُ حواسي، اقتربتُ بارتباكٍ، سمعتُ صوتها يأتيني من سديمٍ بعيدٍ يصفع ذهولي:
- لماذا تلاحقني؟

تكتفي حواسي بدرجة مشاعر خرقاء، ترسم وشماً يُطرز لهفة

فاضتُ في ذروة انفعالي، لم أدر كم بقيتُ أسير حوارها المتدفق.
يتلاطم داخلي هدير صاخب، لا يعي سوى صورة وجهها المحفورة
في ينابيع وحدتي.

برزتُ نداءات ليلة العيد؛ لتضفي لطعم المساء نكهة الفرح حين
يعتصر اللقاء تحت ظل الخلوة لموعد حان وقته في الحدائق
المتزامية أسفل أضواء المصابيح، واللمسات الخجولة لأصابعي
المتحجرة على لفافة التبغ.

تتمطى ألسنة اللهب المحموم على خفقان صدري، يعتصر رحيق
زهو، ينكفي على عشر سنين مرّت بلا عشق، لكنها تمرّ الآن عبر
خلايا مسامي النابتة تحت شجرة اليوكالبتوس الهرّمة.

أستنشق عطر إبطيها؛ ليفتح شهية الوجد، أفكك قوانين اللعبة،
أمضي معها بعيدًا للولوج في حلم يأبى أن يستفيق، ولهُ يتلمس
الرغبة، أغمض عيني، تشتعل الألوان في الأرجاء، يكون للوصل
طعم آخر لا يكتفي بالنشوة.

الحب عندنا إرثٌ أكتشفه الآن، يعطيني حقائق وأفكارًا هجرتها
الرمال، واستوطنتُ معالم مقلة حبيبتني، ووجهها العالق في سري
الدفين، نلتقي في غصن لفّ خجلنا المستتر على شفاه يبست تحت
وابل ثغر طيب الريق، تعلن قصة حُبّ مستحيلة، لكنها تستمر رغم
التعثر، إنها ملاصقة روعي في جلجلة تستنقر شوكة، تسقط على
حباتٍ فاضت من سقف ذاكرتي، لا أتمالك جذوري حين تزحف
على نوافذ أصابعي.

يتلبّد الأفق بأساطير الجنيات؛ لتنمو مثل صرخة مبلّلة تحت ثوب الضلوع، أشيع هيجان الاضمحلال حتى تزدهر النشوة، نتقاسم مشاهد تسعى للإطاحة بكل الأشكال الهندسية، لا يمكن لها أن تخبئ المربعات؛ لأنها تنشد مزامير، تستنشق عتمة الارتواء، أمطار تتشبث مشاعر مقلقة؛ لتنهض مع رشقات الفجر، ربما صخب يوقظ نبوءة.

تتعب المخيلة، أتحاشى الصدمة، نتقاسم عادات أدمنتُ الخراب؛ لنستعيد صورة تفتح ذراعيها لتأوي طين الأرصفة، لتشيد طريق الحجر.

حُمى عصافير تسعل بدون اعتذار، تكسر حاجز جُرفٍ ينخفض بضجر، يتصارع بازدراءٍ، يغمر نسيج الهدوء؛ ليولّد محنة تفتح عينيها بخجلٍ.

حلمتُ البارحة برجلٍ طويل القامة، لحيته الصفراء تعكس حدّة، زرقة عينيّه التي تتلمس دربها بوهج مرسومٍ على أمواج مياه ابتلعتُ قوارب لا حصر لها، في الليلة الحالكة نفت ووجهه حين تساءل:

- هل أنتَ من بغداد؟

مسح شاربه الكث بقبضته، بان سوار حديدي أحاط ساعده، بعدها وشم صمته مهابة لا تتوهم الطرق الحجرية، التي جاسها بقوة تنسل من سيفه المطرز بالمسامير، صوّب وجهه نحو الشرق، وقال:

- أما زال هارون الرشيد هناك؟!

رغبة جامحة جعلته يسألني، سطوة تعاود النطق، وعجبتُ خطواته
بالحنين، بحث في الفضاء عن نقطة تكوين تبدد ضمور الصبر
عنده، قلتُ:

- أظنك شارلمان.

شهق في العتمة الشاخصة، واستفز سنايك خيله وهي تصهل،
تركني غافياً تحت بياض الفجر، أستغيث عصوراً مطفاةً، وأسيح
في هواجس شائخة، أهرب نحو بحرٍ مثقلٍ بالسفن، أدور في
سواحل تعشق الرمل، خبأتُ تحت ذراتها أفواهاً جائعةً مثقلةً بلهيب
السياط، تنتابني حمى لا تخمد نيرانها، وهمُّ ينتشي في زرقة
مضيق، يسكب خفقان حكايات موحشة، تضاجع شرنقة أحلام،
تصارع أهوال المحيطات.

تتخبط صور الطيف المثارة بلا جدوى، ترتعد داخلي مواضع الألم،
فتنزف رائحة تتراكم، دوار يهاجر في فجواتٍ غادرتها مياه
الذاكرة.

لم أعد أشعر إلا بنبض وريدٍ ينتفض في رقبتني، انتابني هوس
تراشق مثل حجارة تلطمني، رفعتُ رأسها، تشابكتُ نظراتنا كأنها
من زمن بعيدٍ لم تلتق، في دوامة المشاعر الجارفة يذوب الصمت،
فكرتُ بالنهوض، لا شيء سوى كومة جمر تشتعل في قلبي، تنهمر
ترنيمة وجد أوحث لي بالألفة، أصحو على خاطري، ينحسر النبض
في باحة الرغبة، قلبتُ جمرات الأفكار تهيأ لي أنني رأيتُ في
الزاوية البعيدة أشباحاً تتوسط بيت الخلاء تتراقص، رحلتُ أشاهد ما

يجري في فجوة رأسي النائمة على خيوط العتمة، يرقد ببراءة
ضوء شاحب يفترس الصوت الآتي من بعيدٍ.

تشكّلت حرائق في أسس هذياني، تتأرجح بين التوهج والخفوت،
مشحونة برقاد، بوصلة الصمت والأهات يفزع نحو ظلال الهاوية
منطويًا على أسرار دهشة محددة، تغزو جسد اضطرابي وسط
حشجة التراجع؛ لأبدو مثل فريسةٍ تزحف نحو دهاليز مجهولة،
يتدفق الخلل منها منكسرًا، يفيض تمرّدًا.

لا أقدر على البوح، نهضتُ بتكاسلٍ، سرتُ نحو الاكتظاظ، صدى
صوتكٍ يرنُّ في أذني، عدتُ ثانيةً إلى الشارع الذي بدا خاليًا إلا من
المساء، يرخي سدوله على المدينة الغافية، وذاكرتي تطرق أبوابًا
غير مشرّعةٍ، تشتعل داخل بوصلة انصهاري، تكشف غموضًا
يطلُّ من نافذة عيوني البلهاء حين تصافح التماع عينيكِ.

عاودني النعاس كأنني في رقدة أبدية، أستشعر سخونة لهيب، يلفح
طيات خرائط جسدي النحيل، كنتُ أدوي وخز يغدق بأفواج تطبق
على الأفق، تنتنثر حولي رؤوس مثقلة بالاستغاثة، ينهض من جديد
شارلمان يبحث عن هدايا صديقه هارون الرشيد.

الأشياء تتوهج بشعاع يهمني على امتداد المعبر المائي، صور
مضجرة لأناس يهربون بقوارب تحوي صندوق طلاس، تكسر
قيود الجراءة، تعيد تركيب نسيج الحكام والحاشية، تتهادى سلاسل
طويلة من الأحياء، يهربون من الانقراض، وشم يفغر فمه في قاع
المياه تحتويه القواقع، الصدقات، الأسنان والطحالب.

في العيد التالي أقبل الضجر، ومعه يزحف السندباد بحثًا عن بقايا حضارة بُنيت من رموزٍ مبهمّة، تُعنى بحكايات ألف ليلة وليلة، ودليّلة تسكب الزيت على جرار، تحوي مسلة غامضة، تنسج خيوطًا غارقةً في عنقايد السكوت، سحنات غابت عنها أنفاس عطر، عبقثُ بمساحاتٍ تطبق على خواءٍ، يزدري سوط الحواس الملتهية.

لمنّ ألقى شكواي وإرثي ثقيل، ليونة جسدكٍ تتحجر كجدار أسمنت يطّي الضوء بلون الغبار، تمتد أصابعي تتحسس لزوجة أفكار منقطعة، تبتلع مركبًا، يحوي قصص الليلة الثانية بعد الألف، حين تعبر الأحلام بين ضفتين، تحملان هاجس التنامي لأجنحة، تنفرد بلا رقاد لتكوين صور، تخرج لعبورٍ ينازع الأنواء، صرثُ أتمنى رؤية غرناطة، أحمل كيس أسراري المملوء خرزًا، وتمائم أهديتها لملكٍ شرع يحكي بفصاحة تسافر بممالكٍ، تستعير علاماتٍ، تهطل ظنون مفرطة لتضيء ما حولي، تتأرجح ببهجة مشرقة في مجرى الريح، تشدني لعوالم قائمة في سُمرة بشرتي، تجذبني لفردوس الغربية.

لا أدري.. لماذا قفزت على لوحة الذاكرة صورةً مخزن الأخشاب الذي يملكه أبي، كان مبنى قديمًا، تعلوه الرطوبة، تحيط به الأبنية الرديئة - كنا نسميه الخان - في الطرف القصي تقبع غرفة الإدارة، بعد الظهرية حينما يذهب أبي إلى البيت، كنتُ أستخدمه لنزواتي الغرامية لما أتمتع به من صلابة مدهشة، في إحدى المرات فكرتُ جدّيًا في الارتباط بمومس، لكنّ إصابتي بداء السفلس جعلتني أُغير

فكرتي، طوال فترة المرض كنتُ ألهو بقراءة كتاب ألف ليلة وليلة.
في يوم الجمعة، نهضتُ متأخرًا، أبي يجلس على مائدة الطعام
مرتديًا بجامته، قبل أن ألقى تحية الصباح، قال:
- اغسل وجهك، وتعال لأتكلّم معك.

عرفتُ أنه سيحدثني عن موضوع الزواج، نظرتُ إليه من شقين
خابيين في رأسي المستدير بذهولٍ يحوي المرض، ورغبة
مصحوبة بالغثيان، لم يستمر حديثنا طويلًا فقد رفضتُ عرضه،
تأوه أبي لكني حزنتُ، فقد منعتني من الذهاب إلى الخان، في المساء
قرر بألم إرسالي إلى خالي المقيم في مدريد، هناك اكتشفتُ تجاعيد
تنمو على بشرتي، رسائل مضمخة بالعطر، دوائر تنثر ليالٍ مفعمة
بنوافذ بالونات المواعيد.

يستفيق جسدي كعادته يهذي، أجلس أمام شاشة التليفزيون، الأخبار
تختلط مع اللّيل، وفقاعات دمي تطبق بفرع على مواقع الصواريخ
حين ترمل وطني.

أغافل ليلة العيد؛ لأبحث عن شهقة لطحّت أروقة عظامي، وعرفتُ
أنّ العصر الحجري لم ينته، طعم الغضب يملء رئتي، تذبل رغماً
عني نهاية حلم.

شريطٌ ينبعث من فورة جداول تشتبك بضغطٍ متشنجٍ كههماتٍ،
ترنُّ محملة بالوعيد، تستغرق بالرجاء والنشيج، صوت يفتش عن
شارلمان.

نافذة اللّيل لا تبالي بخوفي، تسد في وجه الريح افتراض زمني،
يأكلني التملل، يغادر إرباكي، تُفنت أشلاءً، تتقافز هروبًا من نهش
الحكايات.

أعود البحث عن كهفٍ يدفء خيالاتي الغامضة، أستنشق رائحة
فريدة، إحساس عذب يأتيني من كيان عتيق يشدني، تتراءى لي
قباب ذهبية، وأضرحة تعطيني شعورًا بالطمأنينة، وأفيق صديقتي
الخلاسية بشعرها الأصفر المجعد، وعينيها الملونتين بلون البحر
الممتد نحو أفق الأحلام النابضة بلا توقف، تحصر جسدها الطري
بينطال جينز وقميص يكشف سُرتها المنكمشة على مسامات بطنها
الملساء، حكّت لي عن معاناة رحلتها من جزر بحر الكاريبي إلى
مدريد، فقدت الإخاندرو صديقها الأفريقي الأصل، اغتاله رجال
عصابات تهريب المخدرات، خضعت لرغباتهم القاسية لأجل النفاذ
بحياتها؛ لتحطّ الرحال في مدينة يغمرها التاريخ، والوهج المنشطي
في الطرقات السالكة.

كنتُ أرى فيها صورة أفتقدها باستمرار، تنمو داخلي بهدوءٍ أسر،
تنثر في أوعية أفكاري دوارق مملوءة بقبلاّتٍ تنضح وداعة، لم أنم
تلك اللّيلة، فكرتُ في مراهقتي، وإدماي الاستمنا، كيف كنتُ
أحاول العبور خلسة إلى سطح جارتنا، أتطلع خلسة نحو شباك
حمامها المكسور، أراها تستحم مغمضة العينين، الماء ورغوة
الصابون تسيح على تقاطيع جسدها الأسمر، تظل تحرك يديها
بنشوة حول نهديها النافرين، خصرها امتداد إلى أسفل المثانة،

تتوقف طويلاً هناك، ترتعش مع البخار الصاعد بحرقه باتجاه
النافذة المكسورة، مأدبة بصرية تجعلني مدمناً الضغط بحرارة
وارهاق حتى إسالة اللزوجة المنحدرة بين ساقَي الضعيفتين.

في المقهى الأسباني، أشاهد العالم يمرُّ بقرب شوارع تصطف على
أشجار وقصور ملكية، مسارح، ملاهي تدمن السهر حتى بزوغ
الفجر حيث للفنادق شخوصها، ألمح جارتِي تسرح مع كلبها المدلل،
في انطفاءة السلم، أشاهده يحوم حولها برغبةٍ متعرية، يحتك
بساقِيها البضتين، تخرجان من رداثها المتوقف عند ركبتيها،
أسمعها تقول لي:

- غراسيا.

أحرك رأسي بانحناءة محتضناً صديقتي الخالسية، نمضي متعبين
نحو شقتنا، حينما أفتح الباب قبل أن أوقد المصباح، يقفز أمامي
شارلمان.



أوحى إليها الخوف بغريزة تزلزل جسدها المنتفخ، أحلامها كوابيس، ظلت تراقب خصلات شعرها المتهذلة بإهمال، تحدثت مع نفسها ملقبة ظهرها على السرير المكون في الزاوية البعيدة قرب ستائر الدانتيل المتدلّية بلون الحليب، تحيط النافذة الوحيدة المفتوحة على الباحة الخلفية مقابل خزانة الملابس التي تعكس ضوءاً خافتاً، يتسرب بصمتٍ حزين، يتسرب داخلها فراغ موحش:

- كان يجب عدم الموافقة على قراره، إنها حماقة لا تعترف.

اكتشفت حمى تسري في بدننا المترع بالهواجس تسبر أغوار قلبها، بقيت حبيسة العتمة ولزوجة العرق تغطيها، حملت في سماء مكفهرة، تعاني من الإهمال، تنفست الغروب، نهضت بتكاسل واضح نحو دورة المياه استعداداً للصلاة.

لم تتح لها رؤية زواجه والسعادة برؤية أولاده، يبدو لها أنّ فؤادها هواءً، تحس أنّ شيئاً ما اجتث من جوفها، أرقها يتسرب في ضلف النافذة الوحيدة، ترشف ريح اللّيل المبهم، تتساءل:

- تُرى أيّ العوالم تحتويك؟.

تنفر من النوم بانقباض، تشم رائحة تنبعث من مكان مهده، تعيد تركيب أجنحة الشوق، تأتي الأشباح تدور، تتحسس الجدران، تلتصق بخطاه المفزعة، ترج أعماقها، هزت كتفيها مبهورة الأنفاس، حنان يجذبها لغاية تتكسد على وجه الوسادة، تتراكم فيها بإحساس غريب يجهض اغتراب ذكرياتها، يشدّ تعبها في ملاعب الصبّ... تزوجت هذا العجوز الذي يكبرها بعشرين عاماً، تتربص

دورها في ليلة الحب؛ لأنها الزوجة الثانية، طبيعتها الكتومة جعلتها تملُّ لعبة الفراش، تتوق لطفلٍ ينمو في أحشائها مثل بذرةٍ برية، تتحرك في ظلامٍ يشع بحراجةٍ متعبة، رذاذ الذكريات يهمني في الشهر الرابع من الحمل، أحسُّ بالجنين يتحرك في بطنها المنفوخة، صافحتُ عمود الخيال الخافق على الجدار الجاثم بصمتٍ، يبهر الرعشة المستقرة في بدنها، تحكي بلا ملل عن وليدها البكر يحبو أمامها.

أزلقْتُ رجليها المترهلتين تعبر الدهليز، تتسلَّل بخفة نحو الباب الرئيسي، تمضي مسرعةً لموعد استحكم في رأسها، الشوارع مثقلةٌ برداءٍ قاتم، ملامح الفجر تمسح ذبول الليل، تتعلق في دفيق أجنحة تحملها إلى المرقد المقدس.. سيدي مَنْ يحمل عن كاهلي انطفاء يرخي ذعره علي وجيب صدري.

تلتهم انجذابها المتسرع وسط جموع الزوار المتدفقين نحو المنائر المزهرة، تبصر الباب الكبير، تغرق في طوفان متلازم بحضور مدهش، ينتفض وسط الصيحات المججلة، ينبعث داخلها السرور، ينفذ شعاع محبة ابنها، يتمرى في دعائها المنساب مع دمعها الساخن، يكو قواها الخائرة، تحس بينابيع مبهمة الحواس، تنبعث متدفقة بيسر، تندوق اكتشافاً، يمنح فرصة للضوء، يشخص بانغمار يملأه الضجيج.

في المساء جلسْتُ أمام زوجها، ثنَّ ذراعيها تحت وجهها، لم تجد في رأيه ما يقنعها، الإضاءة الخافتة تجعل الجو المشحون أكثر

إيلامًا، نظرتُ باتجاه المنضدة، تقفز أمامها صور عديدة بلا توقف، الاعراضات التي أبدتها أنجبتُ ليلة مليئة بالعجز، تعاند إحساسها بالنعاس، تسللتُ إلى غرفة النوم، تعثرتُ في زحام أفكارها، تمسك طرف السرير البارد، تمننتُ لو تراه الآن، تسمع صوته الجهوري، تمسح العرق من جبهته، وتشم عرقه تتوهج في يقظة، تفرغ إلى وسادتها، لكنَّ النوم يتفتت في وجه الليل النائم على الفضاء الموحش، لا تستطيع إخفاء ارتباكها وجفاف حلقها، حاولتُ أن تبلى ضجرتها، تتلو أدعيتها بصمتٍ.

ظلام مدور، كم كان شقيًا هذا الولد الحنون، أحبَّ تربية الدجاج، وحينما أراد أبوه ذبح إحدى دجاجاته، حَزَنَ وانطوى في غرفته، ترك اللعب وأهمل دراسته، وجهه العبوس يخفي وراءه قلبًا ودودًا، حينما أخبرته بأنها ستذهب لزيارة الإمام الصالح، هبَّ خلفها وعينيه الغارقتين بالدموع تشبه عيني قط متحفز، يمضي معها ملتفة بردائها الأسود، يتعثر بأذيالها فتنهره: يا أعمى.

تتذكر كم كانتُ أمها تطلق عليها هذه العبارة، حينما وجدتها مع صديقتها تمارس لعبة مضية في الغرفة العلوية القريبة من سطح الدار.

أثناء المرحلة الثانوية، ارتبطتُ بعلاقة عاطفية مع صديقتها آمال المتمرسة في لعبة الحب الشيقة، تداعب كرتي صدرها النافر بصلاية متأججة، بيقين في الفراش طوال الظهيرة تحت الغطاء، تستمر الحركة بلا توقف، تتنفس باسترخاء تحت وابل إحساس مفرط بنهمٍ، يلقي ظلاله على مساماتها الضاحجة من وجع لا يرتوي.

صار الأمر أقرب إلى الفضيحة، حينما حملت الأم أقداح الشاي لابنتها التي تدرس مع صديقتها، ابنة الحاج شلتاغ التاجر المعروف أحد أعيان الحي المتسربل برداء العرف الاجتماعي المتمتت، الشرف زجاجة إذا كُسرَتْ لا يمكن إصلاحها.

شاهدتُ المنظر المؤلم، يكتسي لون الفجيعة أمام الأجساد الطرية، عاينتُ الحماسة الذابلة في سماء القيلولة، النهار الموجل نحو الغروب، يمنحها إحساساً بالصقيع، ويغمرها الانهيار، أدمنتُ لعبة التأرجح بملامس تشع لفتشعريرة حرارة القبضة السارحة تحت كل الطيات، ارتأتُ أمها عرض الموضوع على والدها للإسراع بزواجها حللاً بديلاً للممارسات المتعبة.

يمتدُّ هلامٌ مجروحٌ من رطوبة غيمة، حطتْ على رأسها الموجوع من المفاجأة المفزعة، تعثر بعدها رغم الامتزاج الغريب في الرؤى عمَّن يحل المعضلة المكرَّسة في جمراتٍ، تترصد إصرارها المرتحل صوب النفاذ، الإدمان مسار يتواصل بهسيس، يدبُّ على رقعة الجسد الموشوم بالرغبة، قاومتْ طلب أمها بإصرار يصل حد الإغماء.

- يا إلهي.. كم غيبية هذه البنات!

- أنتِ لا تفهمين مشاعري.

- اللعنة عليكِ وعلى المشاعر الزائفة، يجب أن تفرغي الطاقة بالحلال.

ضحكتُ الصبية بجدلٍ، كيف الخروج من شرنقة الأشباح حين

تسيطر على الجموح المحلّق في مخيلتها، الصمت وجدُّ ينساب في
طرقاتٍ تمضي أمواجًا من خلواتٍ، تكتسب رمل الأحاسيس الطافحة
بقاربٍ منهمكٍ بضافه العطشى، بعدها استسلمت الأم لعهر ابنتها.

الخطيئة تنهض وسط القيود المتكسرة بصمتٍ، يئن متمرّدًا خلف
الأبواب المغلقة بلا رادع، تكشف عن التشظي، وصراع الأجساد
حين يتوغل بغموض مترسب، تتلاشى فيه الوجوه.

مع آمال كسرث بجرأة نادرة وعاء الطقوس، تترك ساقها
البيضاويين تحت ضغط سوط كتل اللحم الفاحمة لصديقتها، تبتكر
حواس منسوجة في شعرها الداكن، عيونها العسلية تخفي وراءها
سبائًا جهنميًا يقتلع الإغفاءة.

- ألا تشبعين يا آمال؟!

- ليونة جسدك تغوي.

ما زالت ترقد على السرير بتعبٍ واضح، قطرات العرق تسيل على
الأعضاء المتعبة، تحتفي بهمس حكاياتٍ لا تنتهي.

حانت وجبة المساء، لم تزل خصومتها مع أمها شامخة الصدر،
منصوبة القامة تشعرها بالملل، لم تكن لها رغبة في تناول الطعام،
انسحبت إلى غرفتها، وجدت السكون يبيث مفاصله، حُيّل إليها أنها
ترتجف، وأنفاسها الراقدة على زجاج النافذة، تتابع صفيّرًا يأتي من
الخارج، تدفع روحها، بدنها كإمضاءٍ خجولٍ، يجرُّ وراءه خطوطًا
مرتعشة بضوضاءٍ تثبت في مسقط الضوء المهتز على قمة الباب
المغلق دومًا.

الطرق الخالية التي تقطعها يلفها الغروب، تحيطها شجيرات السرو، تلمح السماء المضطربة تاركة وراءها أسراب الطيور تحلق بأشكال هندسية مفعمة بأصوات ضاجة.

في النهاية ينحسر الضوء، وتظهر قطع مظلمة، تأتي عاصفة هوجاء من الجهات الأربع، تهتز الشجيرات، فقاعات الظلام تبدو أكثر إيلاماً من صورة زوجها الذي يضاجع امرأة بيضاء جوار حائط ملاصق لمؤخرته، حينما رآها تحدق به بنظرة غاضبة ارتدى كئيبان الرمل، ومضى تحت دوي صياح رعاة الإبل، فاختلطت في عينيها قطع سوداء، همت بالرجوع لكن ملابسها غادرت جسدها المكتنز، وجناحين هائلين يهبطان لإخماد أنين موقدها الرابض وسط الرماد.

تنصتت لطنين يسخر منها، ترتجف غيظاً، قوائم سريرها تنهار، تريد الكتابة لأمها، أحست بأن وحشاً مفترساً ألقى بها جانباً، راقبت وهي مستلقية على ظهرها بإهمال، إقبال الرعشة نحو بدنها المترع تحت علامات لا تقبل التفسير، سبرت أغوارها في سماء ملبدة، تأملت كثيراً لو أنها تستطيع التخلص من هواجسها، تقضم وجنتيها دموع ساخنة، والحمى تنتفض في جسدها، الشجيرات المزروعة في طرفي الحديقة الصغيرة تشم رائحة الليل الهابط بحذر.

تفتح عينيها، بطنها المنتفخة تؤكد لها حقيقة حملها، وحيدة في غرفتها تناجي الجنين، عيونها المطفأة تلح في السؤال المعقد عن البذرة المتحركة داخلها.

صعدت تلك الليلة؛ لتقرع الباب الزجاجي لسخطها، ويتضاعف بلل وقع أقدامها؛ ليعرقل رغبتها الصارمة، أخذت تستعيد ظروف تعاطفها مع زوجها، تلمس منه عطفًا يسافر مع انفعالاتها.

لأول مرة تذوق الحب، وتسبح لها فرصة اكتشافه اللذيذ... اقتربت من النافذة، شمّت رائحة التراب، انبطحت على السرير، تحسست نعومة الفراش، ثنت ذراعيها تحت وجهها، وسبحت في نوم عميق، غريزة الحب أوجدت لها فضاءً آخر، يهمس إليها تتحدى به القدر، وتجفف به عرق اليأس بلا حذر، فشلت في الاستمرار بلعبتها، مازالت تحنّ إلى ابنة الحاج شلتاغ.

تراكمت صور ممسوحة المعالم في ذاكرتها، فكرت بسفرتها الأخيرة إلى (الغوطة) حين أغلقت عينيها على متعة متشاكسة تتحرك في دوائر مغلقة، لكنها تنفتح على حلقات مضنية، لم يتبعها زوجها، بقي في بغداد يحافظ على دارهما الآيلة للسقوط، بقيت مرتاحة البال، فقد استطاعت أن تطمئن على ولدها المقيم في مدريد، بدت معزولة في مسارات مغلقة، تنطوي على طرق مأهولة بين ضياع مومع ومخاوفٍ مغلقة، حلمت بالأضواء لكنّ الانطفاء الذي يحاصرها يزيد ذوبان إعيائها في شرقة الجسد.

حاولت أن تطلق نداءات؛ لتستعيد حرارة المودة التي تركتها عند باب البيت، لكنّ لا شيء يمنحها الاسترسال، فعلامات الأمل طُمست ولا يقدر أحد على رؤيتها.



كرّستُ عمري بحثًا عن جُزرِ رسمتها في خرائط تضيء رونقًا
على جسدٍ محاصر بزوابع غبار، يستيقظ في الهياكل المتكدسة.
عند الفجر تفتersh حبات الندى حلم أمي الغافية على أهداب
الفجيعة، تُرى.. مَنْ يوقظها من ذهول سباتها؟ والحزن أشدّاقُ تلتهم
ندوبًا تنمو كالمطالِب فوق دموعنا الواجمة.

الإشارة هذيان يتفرس الوجوه المتعبة، تحوي صمت بيتنا العتيق
الغافي على صور أبي الجائمة خلف زجاج، يحتضنه إطار متسخ،
يرنو بعينه لحلمٍ شائخ، يتعرش فوق رائحة النخيل، ويجعل أمي
تزرع خرافتها بتمازج الألوان، واشتراطات تفكك - ثوابت
ومتغيرات - في سياق التّأصيل حتى ينبض بريق متراكم، يحوي
شرط اللّعبة، يكررها أبي في أجواء الحرب.

يبشرنا علانية (بالصدمة) التي تمرُّ فوق رؤوسنا، إنه فصل
اضطراري، يبتلع هاجس الرعب الملاصق لجلجلة صواريخ (توما
هوك) مصحوبة بدوائر تبيد الدماء حتى تغطي أذعيتنا السماوية،
تتناوب في تأنيث الفراغ الذي يرتفع وينخفض في تخسفات
أجسادنا، التي تشعر بنمط الدهشة الممزوجة بالعجز الفاضح حيال
أول طية تختبئ في حاجاتنا النهمة.

نجتاز الشراسة بوعي مبهم؛ لكي نتمكن من الاحتفال بالغضب الذي
ينهي ليلته بعناقيد مظلمة، تتجاهل الأحياء في قسوة تعكس ملامح
صخرة.

تنفتح الطرق تحت مدارج أقدامنا، نستعيد ضجيج أجواء المدينة

مشبعين برغبة سحيقة تتزين بقلائد عنفٍ متكهرب؛ لنعثر بعدها على سحن متنافرة تلاحقها نيران المفخخات في هواءٍ ساخن، يحاصر اشتراطات اللعبة.

بمحاذاة امتزاج الطين حين تفتح زوائد طحلبية؛ لتنشئ نتوءات خشنة وحادة تقطع ما تبقى من تأسيسات، تشاكس أصماغ الضجر المطبقة على رماح نبتت فوق كبدٍ جفل من أوجاعه، قنطمس علاماتٍ تعصف بابتكاره المضني؛ لينبت في وشم الخاصرة حتى تتوالد شرارات منقذة بإهمالٍ، يعتصر الجو المكفهر بالغيوم، ويلهو مع الهواء قنديلاً تعبت به الريح.

حيثما ينتهي أبي، تبندئ أمي التي تعمل أمينة صندوق في المصرف، يستهويها رجل وسيم، تمرر يدها البالية على جبهة الأوراق المغرية، تتسرب في روحها موجة تحاول إخفاءها، لكنها تتبدد حينما ترفع بصرها نحو الزبون الذي يُكرّس لوحه الخشبي في جيب بنطاله، يطاردها ديبب رغبةٍ مفرطة في اقتناص لحظة موجعة، لكنّ أبي المشمنز يفهم سرها الدفين، يتفحصها بنظراته الجانحة، ويشيح وجهه عنها، يعرف ماذا انمحي من هذا الوجه.

اللّيل يرتجف على أكتاف منزلنا، نسمع صوت رنين الهاتف يأتي من الطابق العلوي، أمي تتحدث بحذر، يبقى أبي واقفاً بين السرير والنافذة المواربة، بينهما عوالم صامتة.

ريح اللّيل ترشف روائح البارود، إنه لا يرضى عنها يلعب ببندقيته، ثم يسخر من روحه، يهرب من اللذة المدفونة - عند منتصف اللّيل

نسمع أزيز (توما هوك) يعبر من فوق رؤوسنا، تتصاعد متممة
نائمة لأحلامٍ تكتشف أسرار الفلق.

يبتعد الصوت المخيف، أتطلع إلى رأسي في المرآة، يتكرر مشهد
الخوف، أسمع دفيف أجنحة طير يفز من عشه، أسرع نحو أبي، لا
تطاوعني نفسي في الصعود إلى أمي، لكنها تندفع من فسحة السلم
مرتدية ملابس سوداء، تكشف زنديها الممتلئين، وفتحة الصدر
الواسعة تظهر عري ثديها، تنزل مسرعة، تطفئ مصباح المعبر،
تبلغ غرفة نومهما، تتحسس رقبتني بارتجافٍ، تقبلني، تجلس على
السرير، جذعها المنتصب يرسم على الحائط ظلًا غريبًا، أوحى
إليها الخوف الجلوس في صمتٍ مطبق، شعرت بالحمى تسري في
جسمها المنتفض من دوي الانفجارات، راقبتُ ظهرها وإبطيها
يغزوها عرق لزج (تضرعتُ داخلي لو تنقشع العاصفة).

لاحظتُ عيني أبي في العتمة المطبقة، بذرة واهنة بلا تعابير
واضحة، تهامس الضوء المناسب من الشباك مع موجة الهواء
المقبلة من الأرجاء، حملت رائحة اشتعالٍ، تتلاشى عندها خدوش
السخرية التي أثارث غضب أبي، ذلك الصنم الذي لا يتزحزح،
فتلوثت الغرفة بالعطر ودخان السجائر والفرش؛ ليشي معالم
يلتهمها حاجز الخفاء... (بقيتُ ألهو باصطكاك أسناني).

في صباح اليوم التالي على مائدة الطعام، وضع إبريق الشاي
الساخن، وعبر النافذة المغطاة بستائر الدانتيل الأبيض، تتحرك
بفعل نفحات الغبش المتسربة إلى الداخل، كانتُ أمي تكلم أبي بلهجة

حانية ثم طبع قبلة على خدها... شخصتُ إليه لم تحظُ بمثل تلك
النظرة العذبة، استمدتُ من هذا الوجود هدوءاً لم تعهده.

بقيتُ أنصتُ لصوت هديل الحمام، لصقتُ وجهي على لوح
الزجاج، بقيتُ زمناً طويلاً أشعر بخمولٍ لطيفٍ.

في لحظة خاطفة، هبط جُنح الظلام، ارتفع بعدها دوي صوت
مفزع، اهتز المنزل، تحطمتُ المائدة سُمعَ تكسُّر الزجاج بوضوح،
هرع والودان بذعرٍ خارج المطبخ، انهمار الأسي في هذا الصباح
الحالك، أثار البغض، ونأى عن ذهني إحساس الطمأنينة،
وتصاعدتُ بواعث الغضب، طويتُ في جسدي الفاني ألمًا، ينهار
أمامي كطريق مقفر، لم أقوَ على النظر، فأغمضتُ عيني لأتغلب
على زمني الموجه، فوضعتُ حجرًا تحت رأسي وغفوتُ.

تفرع تقاسيم وجه أمي، كم استغرق وقت الهذيان، واحتراق يلسع
نافذة الحمى التي انتابنتني، فتشتتُ في جفن الصباح المنكفي فوق
أشجار المنزل المتمايلة بقلق على جسدي المنتفض حول غصن
ارتجافي.

يتحرك غموض يحاصر صورًا متناثرة في عيوني، صوت أمي
يأتي من بعيد، أحسه يصل إلى سمعي من دهليز يتفتت السنة تحوي
أدعية، صرخة ملناعة.

هدرتُ الليلة أحاديث وشهقات، تحسم ألوانًا تهرب في شاشة
التليفزيون، لوحة متحركة تطفئ ظمًا أمي مرتدية ثياب نومها،
تدخن سجانرها بشراهة، يبقى أبي مستمرًا في إعداد أرقامه التي

يحرص على دقتها، تبلى عظامه قطرات العرق، ينشف رقبته
بمنشفة كبيرة، وينفث ريحاً ساخنة في وجه الأوراق الممتلئة حزناً
واحترافاً، يبقى مصغياً لمذياعه الصغير.

نورٌ خافتٌ يتسلل من غيمة الدهليز، متمللاً على فراش نوم،
يخوض عليه همس يفرع ظلّي، أسأم من دهشة مبعثرة حين أكتشف
أمي مع رجلٍ غير أبي، يفجيني المشهد الماجن، أسمع من بعيد
صوت أغنية تذوب في ضجة الشبق المستعر.. مَنْ يمحو الرغبة؟
غلالة الظلمة تزحف بتوترٍ يقرع مدخل السرير، أشاهد أبي عارياً
يصافح مسامات جسد غريب، لم تكن أنثاه أُمي، كان يضاجع رجلاً
يحوي خيالات امرأة، بألفة غريبة يجرحه باختيارٍ مخجلٍ، يشكون
أوجاعهم الغريبة.

أبتعد منزوياً، كنتُ منسحقاً في أفق تتباين فيه حُمى عائلتي
الصغيرة، انصرفتُ أخبئ فراغاً يتضارب في جسدي الأجوف من
المشاعر.

في يوم الاثنين الماضي عرفتُ أنّ أُمي وأبي مطلقان منذ ثلاثة
عقود، لكنهما يعيشان تحت سقفٍ واحد، يمارسان إثمهما بدون
ارتباطات حياتية مألوفة.

في حجرتي الرطبة تذرثُ منكمشاً بلا صواب، همي الوحيد البقاء
على قيد الحياة.. حين عاود (توما هوك) السقوط؛ ارتجتُ الأرض،
تمايلت، سمعتُ صوت الشظايا تنعزز مثل السكاكين في الجدار..
يجفُ الدم في قلبي من الغليان.

كنتُ مصممًا في الانفتاح على شهية الولوج لمعالم توقظ داخلي
بهجة الهواجس التي لا تُقاوم، أغمضتُ عيني، سمعتُ استغاثاتٍ
موجعة وإطلاق رصاص.. بحثتُ عن أشياءي المفقودة..
فتح أبي الباب، همس بلوعة:
- ولدي.

حزمتُ أمي حقيبتها، أنفاس أبي ملوثة، وعطر أمي لا يغري يطفح
باليجان، أبقى محدقًا بالنافذة.. الشمس وصلت حدَّ المغيب، طيور
النورس تحلق فوق الجسر المطلي باللون الأخضر بانتظار
صاروخ جديد... تفرع أزرار زمني المقلوب حين يخفت الومع،
وتمتلئ الأرض بأحزمة الرصاص، السماء تمطر دخانًا، ويفتك
جلودنا اشتعال متأجج.

أمي تخوض في شارع الصالحية بحثًا عن باص يقلها إلى دمشق،
تنفتخ دخان سجاورها، وهي تجلس على أرائك الصالة المظلة على
الشارع المزدهم بالمسافرين الهاربين ذوي القلوب المطفأة، تشعر
أنها مراقبة، لكنها تبعثر حصون الرمل بنظراتها العسلية.

يستفيق الارتباك لتحشر بعدها جسدها المكتنز في المركبة الكبيرة
الممثلة بكتل اللحم، تشهد نهاية مرحلة مضت بمآسيها الموجعة،
تصفع علاقاتها المتوترة بنفس عميق من لافاتها المتأججة.

شمس الظهرية تنزف حرارة متقدة فوق الباص المغادر، وفي
صدرها المتيقن بالنفاد، صحراء تمتد من فتحة أبواب السيارة
المنطلقة حتى الأفق الغارق في غواية الألوان؛ لتكتشف بعينيها

امتصاص اللعب الذي استهواها زمناً ليس بالقصير.

بدت معزولة في مسافاتٍ سحيقة، مكلفة بالعجز وقلة الحيلة، تدور بنظراتها، تمنث لو ترى أبي ثانية، تتبادل أفكارها مع نظراتها الغائمة، ترتقي بطريقتها مواقع تعجُّ بالذروة، يبدو أنها تفتقده لإحساسها بالترابط العضوي بينهما رغم الاختلافات الناجمة عن عواطفهما الممزقة تحت وهن الإحباط، لملت هلام أفكارها، تعاطت مع ألد ساعات الانجراف، طيش المشاعر يجرح ركام الأحاديث المعلقة على مفاصل مناسبة فوق الوهم والحقيقة المجردة، لتنتب حافات تتكسر عليها أحلام تغفو بصمتٍ مطبق.

بقيت مشتتاً بين بوصلتين، أعاني من البعثرة، تتورم المرارة في فمي، ترتخي عواطفني النزقة بين تأرجح ينأبط الزمن الرديء وحاضري المبهم.



صور عشوائية تسهم في رسم طبقة أفقية، أثارث اهتمامي، كنت أقوم غريزة مبهمة حين سرت مبتعدًا خافضًا بصري إلى الأسفل، احتجت الرقود لكنّ ثقبًا امتد في رأسي، جعلني أسبح في مجرة متناهية، يمتد ضوء أخضر لنجوم تسبح في فناء مضطرب يشعري بالانهيار، حاولت التخلّص من الوهن بالتركيز في التحديق بالسقف حيث المروحة تدور برتابة مضنية، ثم انفجر ضوء أنار الغرفة الغارقة بمجموعة الصور الباهتة، أحسست أنّ امرأة تثب للعب فوق سريري المكثظ بصولجانٍ مهملّة بأبعادها الهائلة، شعور بالذنب يراودني، ليست هناك استثناءات، انتشرت أشعة الشمس في الحديقة الممتدة من بداية البيت حتى نهايته بشكلٍ متوازٍ مع الأبنية القابعة قبالة.

الغرف تعطي ظهرها لشجرة التوت، بينما تقع في مواجهتها مبردة الهواء تدفع هواءها الرطب إلى الحجرتين المتلاصقتين.

زوجة أبي تبدو منهمكة في اتصالاتها بعيدًا عن أبي الذي غادرنا، كنت في العراء وحيدًا تحت شجرة الكمثرى، أحاول قطف ثمارها، لمحت رجلًا يدخل البيت خلسة، سمعت صوتها جدلاً، أردت تفسير كل شيء، ذاكرتي أعطتني نبوءة، أنّ لها فمًا آخر غير هذا الذي تقبلني به.

في العالم المشع، أشاهد خلجي المتسمر عند فتحة المبردة، أسمع صوت شهيق وزفير، ألمح فمًا يغطي نبضًا، يستغرق بخوفٍ، يتنفس باستمرار، جحظت عيناوي، مضيت إلى الطابق العلوي،

بقيتُ أهدق في بئر السلم مازال صوت الشهيق والزفير، يطفو على الهواء، خرجتُ خصلات شعرها متدلّية نحو كتفها، واضعة يدها اليمنى على فمها.

حلّ الظلام مبكراً، صعب علي النوم، شعرتُ بالانزعاج، كنتُ فزعاً، تحركتُ في الضوء الباهت، شبّحتها يمضي باتجاهي صورة مبهمة، لوحث بيدها، سمعتُ صدى صوتها يرنُّ في مجرى الهواء، نظرتُ نظرة بطيئة إلى الأعلى باتجاه السقف، كأنها تريد القول أنها أخطأت، انحدارها غير أنفاسي، بدوتُ كمن يشخر من مساماته، رجعتُ إلى مكانها، انتابنتي حمى، أحسستُ أني أصبح فوق عشب بري، الغبار يملأ الجو، الريح تزمجر، رحث أعدو، شبّحتها يطاردي، تيار من الدخان يعلو، يحمل هزيمتي.

أزحف أمامها مثل كسيح، أصل نقطة مظلمة تتلاشى عندها الأشياء، أحاسيسي العائمة تتكئ على طوق جسدي المحاصر بأسئلة، تبرر الحزن في دمي، أنفاسي الحارة تسيطر على نمط ارتعاشي، اندلعتُ داخلي حروق الكراهية، وأيقنتُ أنّ فوضى الحرب تخلف شهوة لا مسؤولة.

في آخر الشارع تقع كنيسة الكلدان، تبرز من بين الأبنية، تتوسط دخان يتوالد مع مشاعري المتلاشية، سرث مسافة مئة متر، أذفع غيرتي المنفلكة من مكانها، ومتعة الاضطراب تخطو فوق منحدر التقاطع، إذ مازالت أضوية المرور المعطلة تجعل الطرق مزدحمة ومسدودة، واصلتُ السير تحت لوحة إعلانات ضخمة، تمثّل وجهاً

مزهرًا بخدين متوردين، كنتُ ضائعًا تدفعني مشاعر متضاربة،
حافظتُ على رباطة جأشي، فقد شاهدتُ الرجل الذي دخل بيتنا
خلسة... قد تكون مصادفة.. تأرجحتُ نظراتي ذات اليمين وذات
الشمال، خذلني قلبي، فقد كان يدق بقوة، جلستُ فوق الرصيف أراه
أمامي وورائي، يتحداني بدهشة عظيمة، كنتُ على وشك الانفجار،
سمعتُ صوت أنفاسي الرتبية تنغرز في حشجة لفتت انتباهي
بجفافٍ مفعج، نهضتُ، رافقتُ خيبيتي، ابتلعتُ احتمالات الخذلان،
اختفتُ معالم الطرق، عاودني إحساس ينفلق في إدراكي كخيطة
مربوطٍ في انحناء بؤسي.

- هل استمتعتَ بوقتكَ؟

كانتُ ترتدي ثوبًا رمادي اللون، يبرز منه صدرها ورقبتها وسلسلة
ذهبية تسقط أسفل بشرتها الحنطية.

ثمّة نظرة مستقيمة تملأ الجو بإدراكٍ مستوى التبدل في لهجتها، لم
يكن من ضرورة للتكلم معها، فمزلتُ غير قادر على أن أنأى
بنفسي عمّا حدث، بقيتُ ثلاث درجات واصل باب غرفة النوم
حاجز حديدي مقوس يحيط بالسلم من كل جانب، لم أملك كلمة
مناسبة أرد بها، أردتُ البكاء وضعتُ يدي على الحاجز أتقد شعور
فوق كتفي:

- لقد رأيتَه اليوم.

غطرسة ونقمة اجتاحتُ وجهها المسترسل في إهانتِي، المكان
مجوف بتوهج يتحلل إلى أنواع متدرجة من الانحطاط.

تفانم حزني يزمر الليل في أحشاء الغرفة الطافحة بشحوب
الألوان، يسلم انفعالي المتأزم على رغوّة تعثري، فأطل غارقاً في
سكون يتقبل الأوهام، في النهاية أقتنع أنه موعد عابر تخفي تحته
عذاباً ينطوي على ألم يتصف بالدناءة.

طال غياب أبي القسري، وبقي الرجل العابر يدخل بيتنا خلصة،
أفسد حبي للدار، شعرتُ بالكارثة تسبح حول رأسي العائم بلا
رجاءٍ، كان على والدي الالتحاق بفصائل تزج في الحرب عنوة،
استهدفته ضغائن حامثٍ حوله، كابد طويلاً للتملص منهم، لكنه
رضخ أخيراً على مضض حين أعيته الحيلة، يبدو أنها طريقة سهلة
للتخلص منه.

ينتابني خوف غريزي، ينبع من حطام روحي، مكالمات زوجة أبي
الهاتفية أسمعها بوضوح لم تعد تخفي شيئاً، ظلتُ تسير في مدار
مزعج يخلق عندي حساسية.

المساء الساخن وتيارات الهواء المندفعة، تجعلني أنتظر فقدان
هواجسي المنقوشة على الوجوم المسيطر على صور أبي، التي
تؤثت الجدران بسلطة مهترئة، تكشف حفرة السخرية؛ لتستثمر
حقيقة الانضمام للأفعال المستمرة بلا توقفٍ.

حين يعود أبي في إجازته، تكون رغبتها قد انطأَتْ، فيستمتع معها
بتقليد حركات مكشوفة، تحمل سحباً من الوجد المضني بلا طائلٍ.

أكون القناص الذي يخفي عينه حتى أنتشل الخسارة، التي تخطو
بين انسدادٍ ضيق، وانقباضٍ يجعلهما تحت مراقبتي المستمرة.

في نهاية الصيف كانت أعراض الحمل تظهر بوضوح، وأصبح ضرب السخرية حقيقة أكيدة، تبقى تتمثل مستقلة على الفراش، واضطراب أمعائها يتناثر في ألم، يشبع غبطني، فقد تحولت علاقتي معها إلى رسائل مجنونة بسبب الخيبة؛ لأنها وزعت ذنبها على خطئي المتسمر تحت طائلة الصمت المفجع، وبلاهة أبي الذي كان يشك بلا دليل واضح، لذا لم يكن هناك مفصل صريح يحرك عواقب منطقية، ظل يتعايش معها بالتعاضد، ليقتد لي أنموذجاً مخيفاً يشعرني بالذنب؛ لتصبح بعدها روعي آثمة.

يتخلص القلق من سطوة التردد، وحين يسقط على حافات الوهن، يتمعن إصرارها في التخلي عن الجنين، بعث وجهها الشاحب علامات ابتلاع السكون المضجر.

طوال نصف نهار غابت عن البيت، ثم عادت بارتباك غريب، جسدها المتين ذوى، وحمى أنفاسها تغطي المسافة من الباب الخشبي حتى سريرها الذي يصر تحت ثقلها الدائم، اختفى انتفاخ بطنها، رن جرس الهاتف تطلعت إليه باشمزاز، قالت:
- أغلقه.

ارتدى الصباح في الغرف المتقابلة أضوية مرتجفة، تظهر بوضوح تام من النوافذ المسدلة الستائر بإهمال، كانت شاردة الذهن كأنها تطحن أفكارها المحمومة؛ لينز عرق غزير على ملامح وجهها الذابل من فرط المعاناة، كنت أعرف أنها تكتم ألماً حاداً، اتكأت على ظلي، أحاول مسح نصف وجهي، ونصف ذاكرتي التي

تشاطرني إزاحة الضوء المتمدد على جفني المطبقين، أفتح شريط
أحلامي ببطء، أطوي توهج منتصف النهار بدون حراك، حاولتُ
أن ألقى الأسئلة لكنني من جديد طويْتُ لهاث الشفاه، ثم جثوتُ على
ركبتي، وغصتُ بدموع مالحةٍ بغير انتظام.

احتجتُ مساحة تفصل بين الحلم واليقظة، انتصب الدرج أمامي،
درجة بعد أخرى، أصعده مجففاً دموعي، أدرتُ مفتاح الضوء،
رأيتُ وسط الغرفة شبحاً فاتحاً ذراعيه، شعرتُ بشيءٍ ما، وحين
استدرتُ اختفى مع الحقائق والعلب المركونة في الزاوية.



مكثتُ في رهبة المكان، يتتابع انحداري في وهادٍ ترابية، تتفكك الأرض شقوقًا مستمرة بلا انقطاع.

الليالي لا طعم لها، وحالة الانقباض تولد تشاؤمًا يسيطر على الكثيرين، شحوب النهار يجمع في تجاعيد القسوة، لا مفر من الترنح لرحلة المجهول، والوجوه المحيطة بي يتفجر داخلها انكسار.

أطلقتُ زفرة حين جلسْتُ على المرتفع الترابي حيث الأرض تنبسط مثل فراش يمتد نحو الأفق بلا توقف، ليس سوى العجز في المثابة المهملّة، تنتابني الوسواس، ورائحة التحسس من الموت القريب تجعلني أعزف عن مجاملة الآخرين.

الانفعال الصاحب، يحملني على الحركة لكسر الجمود المنتشر في جميع الجهات الساكنة، بعد قليل أتعب وأعود خاويًا، ما ألبث التقهقر نحو الضالّة، تتسع فجوة الصبر داخلي حتى تتحول إلى سحابة تغطي مساحة ضجري الملتهب في حدود بصري الخابي.

تذكرتُ ليلة العرس حين احتميتُ خلف جسدها المنتفض عنوة ما جعلني أستسلم للدهشة، بعدها لم يكن من السهل التخلّي عنها، كنتُ فرسها الذي تمتطيه كل ليلة نحو كتل اللهب، تتقدم في دهولٍ شديد نحو قيعاني البور لتفجر ألوانًا زاهية، الطبول والأصوات المنبعثة من مكان ما تخفي وجعي المتخثر.

رحلات طويلة نحو النشوة المحفورة في تجاعيد الجدران والسرير، والأهات الممزوج بالأحاديث والنكت.

الاحتفاء بالجرح، أعلمنا بالبذرة المتحركة داخلها بشعورٍ مبهمٍ،
يمتلئ عذوبة وترقب، تبقى خيبة المكان كذبة، تتشبث في تعرجات
هاجس الضوء الغارق بقسوة اللعنة الجاثمة بصمتٍ مفعج.

حاولتُ مرارًا الهروب، والالتحاق بقوافل الهاربين، لكنَّ حلقات
الأصفاة تطوق بكراهية عميقة مرارة اليأس من إيجاد منفذ، معها
أخوض أعماق لم آلفها من قبل، بعد الولادة أحسستُ بها تتغير
بتمردٍ مفعج، في الأسبوع الماضي جلستُ بعيدة عني، تنفستُ ملء
رئتيها، تقربتُ منها، الدفء يهبط على الحجرة الجاثمة في الطابق
العلوي، الستائر المتدلّية بإهمالٍ، تكتسي بلون الغروب القادم من
النافذة المشبعة بصفاءٍ، يشوبه انعكاس ضوء خافت.

كنا منسيين في وهج مشاعر متضاربة، تخفق مع نجمة متسرّبة
بوشاح رمادي، تسكن قريبة من ضلّفة الشباك المطل على مرارة
اللّيل الماكث بصمتٍ كثيفٍ، يلتف حول شجرة السدر الغافية جوار
السياج الخارجي للدار.

اجتزتُ حاجز الصمت، بدتُ رقبته مغرية بنداواتٍ، تربط بيننا
صلة تؤمن هوسي، انكمش جسدها نحو طرف السرير الفارغ،
وهي تقول:

- هل تحبني..؟

ينقضي اللّيل دون أن أعرف كيف نضجتُ بتداخلٍ غريبٍ، وعودٍ
الإدمان على البقاء منبطحًا تحت لسعة تجمع مقاييس مختلفة،
تكشف لوثة الرضوخ لامرأة، تفتح جروحًا لا تخلف سوى الندب.

عرّفتني على صديقتها (آمال) بشعرها الداكن وجسمها الممتلئ،
كانت تضج بنظراتٍ مبهمة، تفتح في كوة رأسي علامات استفهام
مضنية.

متروكٌ وحدي في نقطة منسية عند فتحة وادٍ، ينغلق على جبلين
أجردين، غارق في ظل يفضح اضطرابي المتشنج، العتمة تغطي
نصف جسدي، ويبقى النصف الآخر عائماً في الوهم.

تتسع ملابسي، تحوي جسدي المتقلص، وريح تهبط من سفح الجبل
بغموض متداخل مع آخر الليل حين يتشقق الفجر بصوت قذيفة
تحمل أنفاس البارود.

تنافسني صديقتها على السرير المطلي برائحة العرق، والحسرات
المكتومة، والحركات العنيفة، أبقى أنتظر ساعات حتى تفتح باب
غرفة النوم لأشاهد وجهيهما الذابليين من التواصل المحموم،
أستغرق في التحديق، أحاول اكتشاف إشارة البدء عند زوجتي التي
فاجأتني بطلبٍ عجيب:

- يجب أن نقلب المعادلة.

- لا أفهم ما تطلبين..؟

- نتبادل الأدوار.

لم تكن العملية سهلة، فقد انطوت على وجع مخزٍ بعدما تبدلت
أحاسيسي، وصار استمتاعي معكوساً ضمن ممارسة جوفاء.
في نقطة التقاء خفية، ينخفض بكثافة غموض رحلة مستبدة تعتمد
على مسافات تخليثٍ فيها عن طقس كنتُ أمارسه بعنفوان.

في ليالي الشتاء تطول السهرات، يسكن الهواء الرطب أصداعي يتحسس بتناسق مؤلم كتلة الأحلام المتورمة؛ لتولّد رائحة طرية تطارد بقوة رذاذ تأججي المستمر، وحين تصل نتوء رأسي تحتفي معالم ذاكرتي بصلتها الغربية، وأتصرف مثل المجانين، لا أفسح فيها للأسئلة بأن تحمل ألواح القضبان.

صار من الأمور المألوفة أن تتكرر حالات الهذيان، ولا شيء يميز الأيام التالية غير الممارسات المضنية، يطفو فيها التوتر، ألتفت حولي، أتلثم الأرض، تتردد أصوات مبهمة، الوادي المطروح تحت أقدام الجبلين، يحتفظ بتفاصيل كثيرة غارقة في ظلام بعيد.

ملئت من الانتظار، أحاول ممارسة عادتي القديمة بصمتٍ، حركاتي اللاشعورية، أيقظت سكوتًا ثقيلًا، قز من وطأتها (شارلمان) فبرز شاهراً سيقاً من جمر، يطوق نصف وجهه بقبعة سوداء، والنصف الآخر تتقاسمه انفعالات صاخبة، ظل يدور بطريقة وحشية، صراخه يملأ الوادي، بقيت أبكي، بعدها ربت على ظهري، وطلب مني أن أكف عن البكاء، ثم عاد إلى حالة الصفاء، فتكلم بنبرة انهارت تحتها صخور الجبلين؛ لأنه يذكر الأشياء القديمة، ويردد أشعاراً ملتهبة.

تهب من جهة الغرب ريح خفيفة، تحمل معها ممارسات الخصوبة، تخلق في جسدي تجلياً، يحمل بصماتٍ تنتشبت في الأرض، تدفعني للمضي إلى قمة الجبل الأيمن، حتى أنشر البذور أملاً في موسم رخاء.

آمال تخفي في نظراتها سرًا أو حاجة ملعونة، تُسقط بصرها تحت سرتي، أنظاها بالاستغراق في التطلع إلى شاشة التليفزيون.

الأخبار تتراءى، النصف الثاني من جسدي، يدفعني للبحث عن نمطٍ متجدد لعلاقة سوداء، أحاول الاسترخاء، أحشد تفكيري في أمورٍ تبعد رغبتني الخفية عن ضجة الانهيار، تنتشر أسراب رمادية تبصق على سقفٍ، يتدفق حنين، يتمطى خدر لذيق في ساقبي؛ لأبقى بين اختياريين الرضوخ دون حسم، أو جر ذيول الخيبة.

دوائر النزول إلى حوض الشهوة، تجعلني شديد الحذر، وبالمقابل تتوسع أدوات الخوض يتخللها الارتباك، واضطراب يفصح نداءات تتساقط بانفجار، أتحمسه بمرور الأيام شعورًا بالراحة، أعطاني دفعة غريزية لنلمس الأعذار لزوجتي حتى تغيب من البيت.

سمة الجلد أغرتني بالهياج، سيطرت على عواظي، واتفقتنا على أن تبقى علاقتنا سرية، لا يمكن لأحد أن يطلع عليها.

عند الظهيرة تشد الحرارة، أتذوق ملوحة جسدها المغطى باهتزازاتٍ مفزعة، أكتوي بنافذة حلم يجري مسافة، تفصلني عن الجبلين، توتر يفيق على لوعة تنبأاً بتمازج الريح حتى تستطيع ملامسة اختلاط الأصوات، عندئذٍ لا يستطيع أحد أن يسمع شيئًا. تروض الرغبة في عالم الحجر على الشحة بتدخلٍ مضطرب، أستطيع فيها التأكيد لنفسني بهمس يعبث بمجريات الأمور.

اكتسبتُ فرصًا كثيرة، اشترطتُ لعبة التردد حاملاً كثافة لونية تنفتح على حوادث كثيرة، الخوض برحلة شاقة تنطبق على وساوس لا

تطمئن، فهي طريقة أصل بها إلى حشجةٍ تغص بعاداتٍ، تدمي
تكرار الأفعال المتضاربة، يبقى عالماً في الأذهان سخونة العوالم
الخاصة، أو حين تلتقي الأعين؛ لتعلن مزاعم خفية.

أمضي في الطريق المعاكس، حيث الأسئلة تتبادل بتعاطفٍ تستبد به
شجون مليئة بالخداع والخيانة، أغمض عيني، أستجمع سخرיתי
كخطين أسودين حيث تتشكل احتمالاتي، لم أكن أتصور أن شيئاً
مثل هذا يمكن أن يحدث فقد تغير سلوك زوجتي.

آمال صارت عندي جراً تستبيح عواطف جياشة، تحني عند
سخرية المواقف المتبادلة حتى تصبح دبقاً يغزوني.



أحيانًا أتمنى لي وحدي دون سائر الناس حبيبًا يتلهف للقيامي،
الأمنيات تلهيني عن دوامة الفراغ، شعور يتوَج بصمتٍ مطبق،
فتزداد عندي كثافة النشوة حين ألمح طيفًا يمرُّ في خيالات رأسي،
أشعر برطوبة تسري داخل عظامي، وتتسع في قفائي مثل قطعة
قمماش مبللة، يتظاهر أمامي التعب فيصيبني الإعياء.

تكاثف الوقت مع جسدي بوشائج تمحو الفواصل، يلتصق محمومًا
بأفكار لا حصر لها، يرتاد ساحة الظن ارتياب، يسارع في الابتعاد.

في الساعة الثانية عشرة والنصف، استنفذت وقتًا ليس بالقصير في
التطلع نحو التلفاز، أردتُ اصطيد لقطات لا حصر لها، تورطتُ
بانهايار مفرع لخيالاتٍ متأججة من صورٍ لا تنتهي، لكن ولا واحدة
منها أعطتني لذة اللقاء.

أنام خالية البال، أجس خطوط الكف المكورة، يصبح عندي الخيال
عادة يومية تنساب في أحداثٍ متلاحقة، أعوم بأجواءٍ تحلق بلا
انقطاع، تحسستُ جسدي الممزق بالأحلام عبر ضوء الغرفة
الكابية، كنتُ معزولة في مجرى النسيان، وجع رأسي يلقي ظلاله
على ممرات أفكارٍ المتشعبة.

ارتختُ بتباطؤٍ شرايين، طبعثُ حركاتها في قالبٍ مخملي، تشارك
بحياءٍ صامتٍ مدهش، يقترب من رسومٍ، توقفتُ عن الدوران؛
لتجسد عضلات جلجامش يصارع أنكيديو.

تنتشني إيماءة المشاهد المثبتة بعناية على جدارٍ يحوي حافة
الوجوم، يوصلني إلى همهمة البكاء، زعزعتُ مخاوفي آمنيات

تحتفظ ببريق يطلي جمجمتي، أظل أبحث عمّن أحتمي به من مزاج
يجلديني.

حكايات صغيرة تسهم في تحلّل مسامات أفكاري؛ لتزهر أصص
مرايا لم تعد تحوي صوري المتناثرة، أمد أناملي المتدثرة بالخدر
أحسب أنني أملك الحياة، تنمو داخل أحشاء الرغبة أنساق تتوافق مع
دلالات تحولي نحو امتدادات تشرع بالنهوض لفك علاقاتي
الجوهرية بإهمالٍ متعمد.

أبي أحسبه شبحًا لا يمكن حسم اكتسابه؛ لأنّ بيئته تتحفز بتقاليدٍ غير
محددة مع استحالة حصرها في مواقف ملائمة خصوصًا حين
تداهمني نزعة روحانية، وأفكر بزيارة المراقد.

غطستُ شموع النذر في إخدود الشواهد الحجرية عند قاعدة
الضريح، أمشي حافية حتى حافة القبر، أنحني، أحاول تأدية
الصلاة، أشعربتوهج هادئ، يفيض الخشوع، أحس هناك شيئًا
يتحرك يغطي منظرًا جليلاً، عبر سنواتٍ لا تعد ولا تحصى صنع
أناس ينتمون لعالمٍ زاخر بالألق ألواح الشواهد والقباب المتناثرة،
أتقدم أصابعي باردة ويابسة، لا أستطيع الاستمرار بالمشي، لم أكن
أعرف هذه اللحظة أنّ الارتفاع يصب في الضريح العالي بإعجاز
وتبجيل.

تذكرتُ والدي لم يكن متدينًا، لكنّ والدتي رغم نزعها، كانت متدينة
دائمًا، تضع شموع النذر ليالي الجمع مع أوراق الآس، وحصن
الحناء عند الطرف القصي من غرفة نومها تحت صورة كبيرة

للأمام (علي) ممسكا سيفه المميز مكتوب عليه (لا فتى إلا علي،
ولا سيف إلا ذو الفقار).

أذرف الدمع، يستكين داخلي خدر يسري وسط دمي، وطنين خفيف
يتردد في أعماق أذني، شعرتُ بالتعب الشديد، اقتربتُ من الإعياء،
تصاعد طعم مالح داخل فمي، ملأثُ صدري عبرة، خنقتُ بلعومي،
وراودني شعور بالحنين، تشقتُ لحظة دفاء، دبثُ قلمي، أمرُ عبر
سوط الضوء يصفع وجهي، أمضي نحو أسطوانة أسطورية،
أتحسس ولادة كائن ينتج عن مصاهرة ماء الفرات بدم مقدس،
يورث نوافذ ملتقعة بصوت طبول تمتطي جوادًا أبيض.

في رخامة المذبح يضوع العطر، يذر نقاط مطر، لا تتعثر، مد
يطغي على خيالاتٍ رملية، لم تبق سوى ضربات قلبي تتسلخ بتباهٍ
وراء شرفات أعطتني وقتًا ينجب بهاء موجة منزلقة.

أفتني خطى الحق بطواعيةٍ تبتكر تمرّدًا على أبي المستبد؛ لتخلق
عندي أجناسًا متفاضلة.

الازدراء يتركني، يختار الإنطواء على نضح جرار متسمره عند
حافاتٍ هجينة من الفلق والحسد، يوجد معايير منضبطة بسياقاتٍ
تبرهن خلاصي من خطيئة أمي وأبي، صار سلوكي مدار حديث.

أتمسك بتقاليدٍ كبيرة توقظ موارد، يحدث حزمتي ضوء قويتين
ترافقاني لكنهما لا تلتقيان في مكان يستبين الاتجاه؛ لأنّ الموضع
الحقيقي عادةً ما يكون في خفاء موقع القلب، وهو لا يحتمل
المنورة، أنتحب بعينين يقظتين، تستيقظ بعدها الدهشة بسخرية

مضطربة، تهدد احتفائي، أجفل من ضربة ساخرة تبتد تناغم الإدراك، تنطلق وراءها وجوه نسوة غارقات في التطلع، يساورني شعور بأنّ الأشياء المحيطة بي أدوات لا تعرف الرحمة، رأيتُ خيالات تشدني للضجر، لستُ قادرة على حمل سيل الأفكار.

بعد قليل ستحين الساعة السابعة، أرى أمي تمرُّ من وراء النافذة المتسخة تحمل معها رائحة ترضي مظهرًا رماديًا باردًا يجمع بين ضربة قاسية، وخربشة هائجة على حائطٍ يرتمي في زاوية متراسة.

يفتح شباك بيتنا على شجرة سرو قاتمة، ترافقني باضطرار لا فرار منه مع أمتعتي في الخزانة الخشبية، أجمع الأشياء فيها قمصاني، صور الذكريات، أدوات الزينة ما تزال في قعر الصندوق.

يتسرب بين الدهشة والوعي رفض قاطع يتأقلم بحضور شبحي، تفيض العلامات، تسبب الفوضى، وتحتمي قبة الأسرار بوعي مبهم. تتنكر حالات الأشياء لحدود المسموح، تصنع مفاهيم تدور في شذوذ الإصرار حتى أصل سفح التهمة.

يبرز وجه أمي مثل نسخ عتيقة فات أوانها، أمسح من ذاكرتي تحفة تذوي وبدلاً من أن أقتنص الفرصة، تتألف مناهج سارية المفعول بقواعد تعكر صفو العلاقة بيننا، يبقى ترابطنا يتمتع بمثابرة ذات أبعاد خاصة، وأبقى أجد العزلة؛ لأفتتح تتابعاً، ينبض في غطاء، يطبق على أبعادٍ منزوعة القوائم تتوقع بفضولٍ مريبٍ.

وجهي مطفاً، ينسج لحظة إنصات لأجيب أفكاري، يأتيني انغمار
يتحرك في مفاصل غرفتي بين طيات الصور المعقدة بأسلوب يشي
بتجانس بطني يغرق وسط مناخ يعيد الاكتشاف.

ربما يرسو الوقت؛ ليفتح ذهني برقة تعطيني إحساساً بالأمان،
أحتضن بيدي غموضاً، يعانق نسفاً هندسياً ملوناً بمئات النوافذ
والشرفات المضاءة وبيوت متراسة، ومن هناك تتصاعد أزقة
قديمة وفجوات كثيرة سدتْ بكتلٍ كونكريتية.

تنبعث من صوب المقهى أصوات رمي قطع الدومينو بقوة على
المناضد، بعدها تلاشتْ الأصوات، صار صمٌّ مطبق.

بقيتْ واقفة في منتصف الطريق، أصغي إلى الأصوات البعيدة
والقريبة، اعتادتْ عيناها المكان، فضاء مفتوح، أمعنْتُ النظر في
اللانهاية، أحاول الربط بين أفكاري، فأبصر نحو السماء كمَنْ يبحث
عن النجوم.

لامستْ أنفاسي بمتعة مرتجفة صدى وطأة الهلوسة، تمطرني
بغزارة تلتصق على سطح ذاكرتي مشاهد ترتشف أحلام اليقظة،
تتهاوى وتتدفق، رغبتُ أن أضجع على ظهري لمراقبة سقف
الغرفة، التمدد يمنحني الهدوء، ومن ثمَّ تتوقف عيوني عن الدوران،
فقد أطبقتُ أجفاني، لكنني لم أنم الليلة، ألفتُ الظلام الدامس، هبطتُ
سلام معلقة في الوجه الخفي لتواريخ تبعث نوبات ساخرة ترافقتي،
تتبادل معي أسئلة التمني.



في الممر الفارغ تدفعني لعنات ساكنة بصمتٍ، يعجز عن إيجاد
فاصلة بين وهمّ متسرب من شقٍّ، يراود شعورًا مبهمًا، وبين نافذةٍ
تغطي الحزن بالهم، يُألف إحساسًا تنحدر منه دمعة، تتعلق بتمتمة
الحياة.

شبه مقفلة ملامح الحيرة، تتسع في أسمالي البالية، بلا اعتذار
تذوب في اعتراضات مساماتي.

يقرع الوخر رعب هرعي نحو نصف الوعي، الذي يحتمل الدوي
الملعون، استمد لحظة تظهر دلالة الأشياء بحراجة تستقر في
ابتسامة واهنة.

ينال التعب من رعدة الاكتئاب حين لامس ارتخاء عضلاتي
الذاوية، البكاء يعطيني فرصة للتنفس بعمق دون انقطاع، يستيقظ
الصراخ في لجة تكشف التطلع الأبله لاقتحام مخيلة الغضب، لما
يتقاطر ببوح متردد، يساوم فيه انزعاجي حين يلتقط قلًا ينحني
على أنفاسي، تنساب نظراتي بلا توقفٍ، تحمل ارتباكًا متزايدًا
يرتجف تحت أزيز الرصاص، حيث يلوث أودية طمانينتي
المسلوبة.

قبل أن أدخل، تسلق الخوف هضبة اللعنة الماكثة في ثقب صدري،
ينفض العجز دموع الحسرة، إذ لا أيادٍ تتلقف صمت الأنقاض، أو
تمارس الوحشة لهاثها مع المجارف، أترك الغضون تستقبل الدموع
المعربة على سحنة تنشوه تحت وجع الارتجاف، تأكدتُ أخيرًا أن
كل شيءٍ على ما يرام، لكنني منعتُ من الذهاب إلى مخزن

الأخشاب الذي يملكه أبي، بعدما أردتُ اكتشاف فحولتي الملوثة بين
جدرانه.

يتخبط الإحباط بين فواصل الأيام الماضية باختناق مجنون، يتقاسم
معي اعتراضات شديدة الحيرة، تختلط مع رائحة تفرع نبرات
صوتي الممزوج بالسخرية، تتهاوى كلمات مبهمة في قشعريرة
القسوة حين يحيط بي نصفي المغمض مبتعدًا بتصاعدٍ مرتجفٍ إلى
حافة الانهيار.

ذات مرة تسللتُ إلى (الخان) انتابنتي وخزة في عضلة رقبتي
المتشنجة، لم تكن النزهة سوى رؤية والدي منغمسًا في نهش لحم،
يزيح جدار الدهشة نحو جزع الصدمة.

مسار يختل بحذر، يحتفي بنوباتٍ مفاجئة، تضيء مسافات الحدس،
بانزياح لا تتغير فيه فرضيات الانتهاك.

في الساعة التاسعة مساءً، يغلي دمي لفقداني شعور الارتياح
بحضوره المتفجر باستغرابٍ، تزداد طقوس اضطرابي تناقضًا
يقض مضجع السكينة.

يلامس نافذة النداعي شجار، أتقي به جاهدًا كلمات بذينة تطلق دون
توقف، حتى تقتنص فقاعة الإزعاج عن كيفية الهروب بتصميم
يتشغل بانتباهٍ مفرط في احتمالات البقاء وحيثًا في العراء تحت
وابل الذهول.

يساهم في خلط العوالم المتشظية، تبخر تفحصه الدقيق في سكون
العلامات المضئية، ينسل العجز بشهقةٍ تجثو على قشعريرة مبهمة،

تتصرف باحتجاج مكتومٍ يمزق شبق السكوت، وأصبح عائماً مثل
أملٍ يُمزق بيدي العاريتين، توقفت نبضات الشعور؛ لتمنحني
ضغوطاً تواجه منطقة فاصلة، تعم فيها فوضى عارمة.

في الصباح التالي، تحين ولادة وعي يقاسي ببطء استيعاب غبار
مشدود للصمم، يكتسي جسدي الناحل سطوة علاقة تختار ثنايا
تتراكم بتفاعلٍ، يتنامى في ذهني المشوش بتياراتٍ تعبر الأجواء
المحايدة إلى هلامي المتأجج تحت طيف افتراضي، يحمل سمة
التوتر.

أظل أجدف تعابير مسكونة بعناوين تتقطع، تساؤلات لا حصر لها،
تنتفخ الأعصاب مكمة برغباتٍ تتفاسم أنفاسي المتوارثة أزمت
(شهريار) المتشيث بخيالاته المهشمة.

- ماذا لو..؟

يختفي السؤال، يتلاشى التجهم حين يترجل الأختلاف بصيغة
يتحملها باهتزازاتٍ متتالية، تتدفق معاني ترنو لشفقة تذوب في
أشعة الشمس البازغة في نهار نصف غائم بتدفق غريب يكتسي
رداء المتعة.

يستعيد صورة تحوي هالة ترابط عائلي يطالعه بارتباكٍ يغطي
جفاف شجونه، لم أعد أحتمل الخذلان، أوصل الذهاب إلى الخان
تحت تضرع المرارة بارتجاج نظرات مريية، ربما حاولت استعادة
شقاوتي بعين نصف مفتوحة، تطالعني نوبة الحبو بلا جدوى،
أمارس بخشية متمردة أعداراً، لا يمكن تسويغها في إشعال لفافات

التبغ، بأمل امتلاك عذوبة النسيان، والهروب من جراحه إغماضة
الأسى حين تغطي فسحة التراجع بزاوية خجلة من خفقان، يختزل
التردد بصمتٍ مهيبٍ.

تصادر أصابع الحزن يومي السابع، أبدو مشغولاً بهمومٍ تدور
بنبوءاتٍ، تشخص بارتعاش متحمس، يعبر إلى الجهة الأخرى في
محاولة لفك تآزمي، خامرني إحساس بهيج، يتسم باللامسؤولية في
الارتباط بسيدة أربعينية محنية الركبتين، صوتها الحاد يمزق براعم
لزجة في سماء الحنجرة.

يرقد مارْدٌ غير مألوفٍ في وجه أبي، نبرات صوته الجافة لا تهتم
بوجود أحد، هذا الرجل الضخم عريض الكتفين، شعر رأسه
قصير، ملامحه قاسية، ترتفع فوق أنفه الكبير المؤطر بنظارة
طبية، عينين دقيقتين، يبقى يتأملني حتى تصبح نظراته مزعجة،
سألني على نحو مفاجئ:

- هل تتردد على الخان خلصة؟

اعتراني صمت مطبق، رغبْتُ بالاختفاء أو الهروب بدلاً من البقاء
متسمرًا بحذرٍ يطّي وجهي المثلث، حاولتُ إيجاد أعداءٍ واهية لكنَّ
كذبي المفضوح تسرب عبر خيالي الجاف.

يهتاج بقوة صوت أبي، يأتي مضطربًا، يعلن استغراقه الأبدي في
حادثة هروبه مع والدتي إلى الأهوار حين توقف بين مفترقين.

بعد انتصاف الليل تتبدل الأحاسيس، ويصبح بلا قدرة على التفكير،
القارب المطّلي بلون الظلمة يتوقف مصغيًا بصمتٍ لموجات الماء

باعتيادٍ مريب، الجنوبي ذو الملامح الحادة يخاطب أبي المذهول:
- أمّا إنْ تسكت الرضيع أو أغرقه في الهور.

مع البكاء، يتصاعد شرخ في مشاعرهما، يضيع وسط أصوات
زوارق الدوريات العسكرية التي تجوب المحيط بلا توقف.

حاولتُ أمي إسكات أخي الرضيع، لكنّ صراخه المبهم يزداد،
مثيراً حنق البلام حتى تتشوه معالم وجهه؛ ليقف منتصباً عند
مؤخرة قاربه معلناً نفاذ صبره.

سحب البقاء، وعناصر الفرار جامحة تتبعثر بتبديد الوقت على
مساحات تزدهم بطنين البعوض، إنه إدراك للمشاركة الوجدانية
كراهية فطرية للحظات مناسبة لجعل الموت حكاية عابرة.

الطفل الصغير يرقد بنبض غير معتاد بين ظلالٍ شاحبة، وعصا
الدفع تستقر فوق رقبته الطرية، تحاول جعل حزن الأبوين مقبرة
تحتفظ بمشاعر شخصية لطموحاتٍ تستغرق بتماسك يتحين الفرار،
وتحرير نفسيهما من مشاهدٍ تثير الشفقة.

ذاكرته فخورة بالحكاية المتجذرة في همته الفاترة، ارتيابه الأعمى،
جعلني أشمئز من ارتياد الخان، أحسستُ أنّ حماقتي لا تمنحني
البيهجة.



لقد قضيتُ هذه الفترة في إعادة النظر بما جرى من أحداثٍ، لم أستطع إقناع نفسي، فثمّة جوانب أخرى للأمر كان علي أن أوضحها، تمكنتُ من اكتساب شيئاً من الحس بنمط العلاقة التي بدتُ تنمو في مكان، يحفزني بتوقيتٍ غير موفق، تعلمتُ في الأيام التالية كيف أكسب الود، وأجمع رواسب التردد؛ لأبدو في مأمن من إحساسي الغريب، ربما للمرة الأولى التي استطعتُ فيها أن أرى وجهها ممزوجاً بالغبطة، رؤيتها سببتُ لي تبلور ابتهاج يستبد بي، لم أحسب له حساباً كافياً، لما تكون عليه حال آمال في ذلك الوقت من النهار، ربما سنتفق معي بالذهاب إلى أقرب كازينو في إحدى المناطق الراقية، تخبرني بتفاصيل متعددة عن طلاقها من زوجها، مشاكلها التي لا تنتهي مع أمها، لم أكن قادراً على تأكيد رغبتني في الاستمرار بالاستماع إلى حديثها الذي لا ينتهي، توقفتُ عن الكلام بغتةً، وبدا عليها شيء من الارتباك، بعدها تصنعتُ بدايةً مثبطة جداً، حاولتُ التخلّص من لقائها.

مارستُ داخلي إنضاج مشاعر تدور في ردهات المساء حين يغلفني بفخامة، تنتهج طريقاً، يدعوني للاهتمام بمسائل أخرى متنوعة، لكنني بصورة عامة لا أرى سبباً حقيقياً، يحول دون قيامي بالاتصال بها.

ما يحيط بي غداً مشاهد لا أعرفها، فعلمتُ أنني جاوزتُ مناطق معروفة، سمعتُ أناساً يصفون التلاشي الأخير لمراي شعور ممزوجاً بقلق، تحيط به هواجس غريبة، استدرتُ في طريقٍ ينحني باستبدالٍ، يتركني محلقاً بفضاءٍ يداهمني عنوة.

يختفي في أدغالٍ تمتد على جانبي درب ترابي، استمتاع لا يخطر على بالي، سمعتُ صوتًا ينادي من خلفي التفتُ، أشار رجل بيده إلى الأعلى، لم أستطع تمييز كلماته، رأيتُه يشير إلي بإيماءات مبهمة.

في هذه الليلة لم أنعم بهدوءٍ، ما تبقى داخلي مشهد يمتاز باضطراب صارخ، يكبح حس التذُّكر مع فتور حماستي، يبقى جهاز الهاتف يرنُّ بلا توقف، يشتد في نفسي اعتقاد يتنامى باستمرار عند الموقع المعتاد تتكون فرصة سانحة وأردد:
- سأقوم بما يلزم.

يدهشني وابلُ النهار المشرق بشمس الصباح الباذخة، أحرك مفتاح المذياع، تصدر حشرجة، ثم صوت يتلو القرآن.

في هذا المكان لم أكن متأكدًا مما يشير إليه الوقت، فقد أصبحت انطوائيًا على نحو شديد، ولاشك أنَّ مزاجي يتقلب تحت تصرف لا يستقر، لكني ما أزال أرى هناك أكثر من تلميح على اشتياق من حنين في أجزاءٍ معينة من ولعي المسفوح على غرفة النوم في الطابق الثاني المطلة على شباك المطبخ المربوط فوقه مفرغة الهواء الزرقاء.

سطوة الغموض تستمد موقفًا شبيهًا بوقار يتركز في تصرفات تعلق حقيقة مهمة، أنَّ القيم المهنية لا تنكر مثلي العليا، حتمًا سأجد مَنْ يحاول تحليل الأفعال بلا جدوى، أخطائي الصغيرة في العمل لا أعتقد أنني سأضع حدًا لها.

الحرب عادةً تأتي ببيان يذاع عبر الأثير بعدها تصبح الأمور مختلفة، تظهر المشاكل المستعصية، أصبح مسكونًا بمقاطع مشربة تعبر عن معان عامة، تسترجع العمليات العسكرية، وأصير رهن إشارات لا تحتمل البقاء لإحساس يتبدد.

مسحة الغبار تغطي نقطة التحول بين مهنتي صاحب مخزن للأخشاب وضرورة التطورات المتسارعة.

سأحاول اقتباس معيار يتفق مع دقة الذاكرة، إنه إعلان يتمتع بمستوى إنجازات تتجاوز سلطة العبث، والسعي وراء نهايات تكتسب صفات غير جازمة، تجعلني ألتزم الحذر، ولا يمكن نكران المسؤولية حين تقع النهاية، اضطررتُ للتوقف والاختباء خلف إحدى البنايات؛ لأنَّ طائرات العدو تغير على العاصمة، مصادفة تنبض بالحياة القابعة في اللامرئي، الإحساس بالرعب يصيبني بالخرس في حدود الاحتمالات.

تضاءلت حافات تنفصل جزئيًا من نظام يكمن تحت جرح راكٍ أصابه العطب، لحظات غريبة مرث، تنتكر خلالها صور مفزعة في شبكية عيني، توهج يقبع وسط دوي المدافع.

لون باهت يتبادل مع استنشاق الهواء، سالتُ دمعة بلون الملح، رجعتُ خائب الأمل، سرتُ في شارع فرعي، الناس يتجولون بلا هدفٍ محدد عالمهم يتظاهر بالسكون، لكنَّ صرختي تخلَّت عني مع احتمال حدوث شيء في رأسي يجمع بين ظلمة دافئة وليل بارد، يثير الشكوك في تصوراتي.

يتوسع رسوخ صور مرعبة، تحوم حول قسوة بالغة، تتوغل كلمات قش الذاكرة، تفتش عن ألوان رمادية، يتخللها لون أسود معلق في مكان ما، يتأرجح إلى الوراء بفضاضة دون أيّة كلمة تهوي من فوق، وأظل أبحث في زاوية مهملة عن متعة العثور على بصيص أمل، كنتُ أظن في حي يقع غربي المدينة مثل فجوة في جدار آيل للسقوط، أتذكر أم عبدالزهرة التي تسكن في البيت المجاور، سيدة طيبة بحركاتها البطيئة، إنها بديل لا يتزحزح عن أمانا الطبيعية، هي كنوع من النبات مثبت بالتربة يكره الحروب.

فكرة مؤنسة أن تجاور نقطة ذات بريق باهت محايد ساكن مثل طوق حجارة، أفقتُ مازال الزمن المضطرب ينبض فوق ألواح تتراقص وتدوي، وتتلاشى في إغماءٍ شبيه بالألم الخافت.

هناك اختلال في فجوة العقل، تحمل تفكيري إلى عالم يعوزه الوضوح، مثل حيوان أميبي أتمدد فوق تربة جف عنها الوحل، مرضي الخاص يجعلني أعاني، أتوسد اضطجاع بغية الوصول إلى الحافة، أنتظر الطائرات تنز فوقي من جديد، تسعى للهبوط أو تقوم بدورة نصف مجنونة، أشارك فيها الارتفاعات السالكة بتعاقب أصوات المحركات الهادرة، تنتابني حماسة محرمة، ومقدسة كعلامات غير مألوفة في مثل هذه الظروف.

تحوم في الجو أشباح تتلاشى بهدوءٍ في اتجاه تيار يزحف فوق زمجرة مكائن تصدر صوتًا قويًا يمزقه دوي انفجارات متلاحقة.

تتسلل الضوضاء في أخايد الشوارع، والطرقات على امتداد نوافذ

تعكف بطقوس تتعثر في استغراق حواجز البيوت الكابية تحت ضوء القمر في وهج فضي، يكسو خصر الظلام، يشمل أعماقاً تغمرها نقطة إدراك تتقدم ببطء بحراجة تنتصب بيني وبين الأعشاب الطافية في مكان لم ينظر إليه أحد.

تتقاطع أغصان فوق طبقة أفقية وسط أوراق تتجاوز نبوءة اختلاف زمن لامتناهي يشعرنى بالذنب والمسؤولية معاً، فأظل أبحث عن بداية الظلام، ينتابني خوف غريزي يعدو بسرعة مؤثرة، يتحسس اجتياز رهبة المكان، حاولت الإفصاح عن دافع يخالف تلجأج آمال التي تقول بأسوأ وسيلة وأكثرها ارتباكاً، وقد تجاوزت بالأفاظ بذينة انعكاس حجم المشاعر المتردية مع والدتها.

في الأمكنة التي نذهب إليها تغدو مزدحمة، وتكون رغبتى مزيجاً يترنح في جو يفنقد الاحترام، وإحساس غريب بالخلود إلى النوم.

اختفى مشهد من مشاهد العالم حين تلتقيت اللوم على تقصيري بالعلاقة معها، تبدو العلاقة مشوهة، ولا ينبغي ممارسة السذاجة، وزوجتي تعرف سمة أعماقي حين تتطلع بملابسي التي أرتديها.

الحزن امتداد خارجي، ينكر وجود المتعة في منهجية سوابق تشق طريقاً في مساحات شاسعة من الصمت.

التصورات الخاطئة، تمنح اللمسات اضطراباً مريراً، وفي ضوء النهار أتغلب على مخاوفي، ويكون الجنون نمطاً يتحرك مثل حشرة تزحف بالتهايم أشكال الهواء.

لم يكن يوماً حافلاً بالرضى، اكتسحت المجازفة لما زمجرت بقوة

جارفة عن مدى الغلطة التي اقترفتها، وتدعي بقسوة واعية أنها حامل، مرثٌ خبيثي بانحطاط نزوة كئيبة، تجعل الحياة عذاباً وضياًعاً للاشمئزاز، الهلع ينسجم مع الحدث، وتنبعث من نافذة جسدها صورة خضوع يترسب تحته غضب ينتشر أمامنا يحاكي وجهاً خفياً ينظر خلصة للاحتقار، أشعر أني لوحة صنّعة هوس، يتذبذب بين مظاهر أفعال تعيد الوحشية بيقين تام، وفهمٍ يرتقي لمعرفة أشياء ترتبط بالإدراك.

في أعماقي بئر يرتبط على نحو جزئي بوجهة نظري المليئة بالمعاني، واللوم عند حدود الحنان والأمل المتشبه بدوائر ممثلة بالهراء، تنفس أحاسيس عائمة، ومتحجرة في جسد هامد تحت ظل صمت عينين واسعتين.



في تلك الأيام كَوْنْتُ صداقة حميمة، صلة تمطر استمتاعًا يضفي غموضًا يحمل معايير بيوتات مغلقة تطور صفات مختلفة.

ثمة سبيل سلكته مع صونكول، كنا ننتقل من موضوع إلى آخر بعرض مشوش، جراً منهكة جعلتني أتقرب بتدنيس يحثني نحو الفتاة المتألقة.

أهملنا دراستنا، وبقينا تحت سماء الغرفة المنزوية نرتعش مثل جروين صغيرين، تحتم علينا التوقف حينما دخلتُ أمها حاملة أقذاح الشاي.

سرتُ أشكال غريبة تتقاذف ظلال مجوفة بألوان معتمة ومشعة، لم أرَ سوى يد أمها تصفعني بشدة بعدها حصلتُ مشادة عنيفة، أسمع صوتها يزحف باصطكاكٍ:

- ابنة شلتاغ ما تفعلينه مع ابنتي شيءٌ مخز.

وقفتُ صونكول بصمتٍ في الزاوية البعيدة، هبَّ هواءٌ حارٌّ لأمس حلول المساء الزاحف بوهن يشيد طريقًا لنسمات هروبي في اجتياز أرضية حجرية مرصعة.

وجدتُ ريقِي ناشقًا، انحنيتُ أمام الاضطرار، الصوت المسموع يطاردي:

- شيطانة.. حياسز.

حملتُ جسدي على قدمي الخائرتين تحت ثقل الصدمة، عثرتُ أمام عينها الغاضبة، استولتُ الضوضاء على كياني، غزتُ اللانهاية كومة عظامي، صورة السيدة ذات الشعر الأشيب تنقب حفرة جانب

رأسي، سمعتُ داخل أعماقي صوتًا يتحجر أحاسيس خيالاتي ما انفكتُ تنتصب بسلكٍ مشين يمنحني الانطفاء، أتذكر وجه صديقتي وردي اللون المبلل بالعرق والخوف، حاولتُ إصلاح وضعي حتى لا يبدو هناك توتر في ملامحي المقفرة بانزلاق مذنب، يستبطن مشاهد هابطة.

بعض الأحيان أظاهر باللامبالاة، لكنَّ الهوس يتحول نمطًا يحوي مخاوفي، فيدفعني تحت ظلام غرفتي أناشد السرير بفضول يقترب باضطرار نحو حافة الجنون.

أرسلتُ لي صونكول رسالة أخبرتني بأنها أجبرتُ على قبول خطبتها من سردار صديق والدها، فكرتُ حتمًا ستسحب كل ذرات جسدها وتوافيني، كنتُ مليئةً بلحظات الانتصار، قدرتي على التفكير هيأتُ لي دليلًا يحث انتماءنا لصور حسية مشدودة بتخفي جسدها تحت استمتاع متباين يتكرر في منزلها الجديد.

من الصعب على سردار تقبل الفكرة، لكنه يحظى بامتياز العيش مع صونكول، فلم يستطع التخلي، أو التوقف عن التآرجح الساخن عند سلام البهجة الراقصة فوقه.

متعته الهادئة مذعنة بحيرة غامضة حتى حدود تلاشي القسوة، يبقى ينتظر داخل غرفة الجلوس فيما نتقاسم النضوح بحركاتٍ آلية يغطيها غبار غير محدد المعالم يتوغل صمته الحزين.

تزحف نظراته بشراهة على مقاطع جسدي المتين، يتكور عالمه نحو مسعى نوبات تقبع بانتظار متأرجح، ثم يسحب عينيه عني،

ينظر إلى شيءٍ ما في الهواء.

أحيانًا كثيرة يذهب إلى زوجته الأولى، لم يكن سوى نتوء في طريقي للوصول إلى صونكول، رائحة الاستغراق تتلمس طريقها بحثًا عن سقفٍ ينزل ببطءٍ، يتدلى حول نقاط تتحسس حقائق تدور بفعلٍ وحشي، يعاني من طبيعة الجسد المشتعل بأنفاسٍ محترقة ونبضاتٍ متسارعة.

وجهها الوسيم، يرتدي عينيها المحدقتين لتجربة متنامية، ينم عن هدوءٍ واندفاعٍ على الجدران الصامتة، زوايا عوالم موصدة باسترخاءٍ موجه.

ابنه الوحيد يتردد باستمرار، يضيف لي إحساسا بيدد خلايا عواطفِي الجامعة، ينقل بعينه صدمة تستنتج اعتراضات زوجة أبيه.

شاب في مقتبل العمر، شعر رأسه منسرح فوق أذنيه، بواكير شارب، ولحية بلون أشقر، يدعى زكار، كرهني بعمق بسبب وضعي الشاذ في بيت أبيه، لكني تباهيتُ بأحاسيسٍ تنتزع الطمأنينة من الهرم الاجتماعي.

هناك سرير يرسم خطًا متوازيًا مع إشارة لا تشوبها لمسثُ أصابع تقترب، وتتباعد في مدِّ هستيري على جسدي المعلق بخطافٍ يسلخ وجهي المكسو بالسمنة.

لكنها كانت تنفر منه بمزاجٍ يحمل لعنة محبطة، ربما ملأثُ فراغات كراهيته بدلًا عني، فهي قريبة منِّي غايةً القرب، يكفي هناك رجل

واحد في البيت يرضخ لإيواء زلتي اللعينة بدون اعتراض، فقد كان يتصرف بإدراكٍ.

أخذت الأمور توحى بتبدل سلوكنا، تودد سردار السري يفتح خطوطاً لاحتمالات متعددة.

أستطيع لمس تعاطفه، وخذلان قلبي المنتفخ بهيجان متكرر، أجلس في الجانب الآخر مفصولة عن تعقيدات شاقة، ألمح افتراضات مرتبة بتجدد التعارف، يغض الطرف عن آفاق رفقتي لزوجته الطرية.

إيحاءات تتقارب مع مكنونات توقعني في فحه، تحت رموشه الطويلة وشاربه الكث، نظرة عميقة تملأ الجو بالتفاهم، يرتفع ذقنه المدور، ينهض، يفصلني عنه حاجز مقوس، نيران تندلع، بدني المترع شوقاً يبذل جهداً غير اعتيادي لوقف انزياحي أمام سطوته، لم أسمح له بالاقتراب، ظهرت من وراء الحاجز صونكول، أحسّت باتقاد شعورنا وقوانين اللعبة تحرق بمهانة.

خيطة يائس ومتعثر يتسلل بيننا يوشك بتهديد رباطنا، لكنها فجأة بدت إنسانة أخرى برباطة جأش قفزت على التوتر، وأشاعت المرح. يبدو أنها تخلت عن غيرتها، أخبرتني بإذعانها لفكرة تدور في رأسها بأن تمنحني لزوجها حينما انفك اشتباكنا تركتني عند حدود الرغبة وخرجت؛ ليدخل بعدها مضطرباً في جحيم تصوراتي الخاطئة قبل أن يتغلب على مخاوفه، حولته إلى آلة تمارس نهاية ترتدي أفق الممكن.

لم تستمر لحظات الاستجابة طويلاً، وتأكيد القدرة الرجولية ترتخي

مع نمط الإذعان في الذهاب إلى جبهات القتال.

الحرب المستعرة تهدد بضياح الحرية، وتكتم أنفاس التبرير، يتهدد التكوين تحت انسجام مفخخ يزحف ببطء، يحتوي حزناً لزجاً يسترخي على وجه قلقي، تمّ استدعاء صونكول إلى المنظمة الحزبية، حينما عادتْ بدتْ حالتها متوترة بشدة، عند الأماكن الحاشدة تغطي العقارات المنتظمة أضوية قدرة، زوج غائب، زوجة تنتظر عشيقة تخفي رأسها بوجع.

أحسستُ أنّ مرضاً يسري في بدني، ساقاي ترتعشان لكي أصل جرف معاناة صديقتي الحميمة، سعيثُ لاستيعاب ما تقوله عن طريق مسامات جلدي، في المرة القادمة حضر ممثل المنظمة إلى البيت بدا بشوشاً، حمل كلامه فخامة عارية حتى يجعل صونكول ترضخ له، مضتْ برهبة إلى غرفة نومها تبعها بثقة عالية مبتسماً بوجه الهواء الذي ملأ أفواه الممرات والغرف، حيث المساء يضع بصماته، تردد داخلي عواء مخيف ينطق بارتباكٍ:
- من الأفضل أن يفعل ذلك.



إفصاح مزري، يكشف رصد يرفض البحث عن شعوري المرتعش
تحت رغبة مفعجة مشيئاً دروباً، هاجرت مخيّلي بلا ملامح.
ظلّ صدأ الذهول يسخر من عصف التيه حين داعب جذب صور
توالث ببطء، تظهر من دخان يتسرب متموجاً تحت سماءٍ تنفّلت من
قبضة تستعير ألوان، تقترف امتعاض التلصص لفخاخ محكمة
الإغلاق تهب قبل الصفير.

الحلم يذكرني بضوءٍ يلُم حراشف تقفز نحو تناسل يفيض عرياً،
أطيل المكوث، أتعرف على عائلةٍ من الوشاة - مغدور أعد أخطائي
التي تقتنص عطراً يبيلل هواء الصدفة - تكتمل الفراغات تحت
جبهتي، ويطفو صوت في الفضاء:

- أما زلتَ تحلم..؟

الشمس تنفذ فوق جثة الأشياء، تتمدد بين رفوفٍ طويلة، تحوي كتب
وأريكة ضخمة وضعت عند باب الحمام، يرتج المشهد بساقين،
تعيد ترتيب الضوء بلمس يشعل احتراف الأعضاء، تلوح دون
تأويل لنمط الصمت العابر خلف نداء:
- انهض.

رائحة القسوة تطبق على أسوار الأحاسيس، بريء من ذنب
يطوقني، أتمعن الفوضى، أرسم انحناءة أماكن تحوي لغز الطابوق،
أرغب بالعودة إلى نقطة طافية تجمع خواص زمن يحكي تماسك
حياة، تجرب وعي يلتصق بالضوء يسيران معاً، يتجذر فيهما حزن
شأن كل الأحزان التي مرّت، وبقبث عالقة فوق مذبح الذاكرة،

استيقظت لم تتغير الحقيقة - الحياة سقف لا محدود - نظرت نظرة يائسة، مشيت صوب الباب بقدمين متهاكيتين حاملاً صولجان الظلام، أتلف نقوشاً، ألفت طقوساً دقيقة الرموز، حاولت مطاردة حشود الوعي المتدفقة بملء إرادة الظلال، لكن إنساناً غريباً وثب نحو خطوط السير من جهتي الشرق والغرب، فلم أكن قادراً على التفكير بسبب توهج الدخان، ورغوة الخريف المنبثة في عروق السماء.

سحبت قوس جسدي بمتعة مضطربة منتظراً أن تبرز لمسة التواءات المنازل بانحدار بسيط صوب جهة اليمين، الطرق مزدحمة ومسدودة، والمعالم المطوقة تستنفذ قوتي.. / رحلت أبحث عن حريتي المفقودة / قلبي يدق دقات مسموعة / هناك رجال الأمن / اهتزت في رأسي إشارة واهية، قال أحدهم:
- أقفل الباب.

هذا أول لقاء لي مع الخوف، شعرت بالبرد، تكومت مرتجفاً، انطفأ نور معلق وسط عظامي، حامت بقعة سوداء، عانيت من نوبة مرض جعلتني أغمغم، ارتج شبح يصرخ:
- لم قفلت الباب؟

تلاشت بقعتان سوداوان في تأملاتي الغامضة، مزيج من الأمل والإحباط يتنافسان تحت بشرتي المعتمة.
انتصبت بهزة عنيفة، حرك المحقق وجهه المتغضن، ظهرت تجعدات ونقوشات، أسنان تصطك، تحركت في الغرفة دوائر

صغيرة تصنع ظللاً متحركة على الجدران، أتجه نحو النافذة، وبدا لي طويلاً، استدار ويده تضغط على العصى الكهربائية، أحاطني بغموض وتعذيبٍ مستمر، أغرقني في دوافع مخيفة، ينبغي تحملها ليلة إثر ليلة/ أفنقر إلى الحرية التي سلبت جسدي/ أستحضر تضاريس هواجسي المريضة، لا أتذكر متى أو أين تتجلى وحشية الجلد، بحثت عن نصف تفسير لرهبة تتجه صوبي أراها تلتهمني بقوة، بدأت أدرك العالم الآخر، سلوك يصغي للضحكات البذيئة، إحساس يسد تجاعيد نقص ملامح متجهم.

الاتجاهات السائدة تتحرك في أرجاء الغرفة، تجعلني أبحث عن مخلوقات حية تتنفس عطر الهواء، ظللت أبحث عن نموذج حي، ملت إلى الأمام أمسكتُ سعالي، نظرتُ بعين وامضة، الوجوه المتألقة تجلس على نحو دائري بيني وبينهم فجوة، تجعلني أدب مثل فأرة.

ثمّة توهج يحكم المظاهر المنبثة على الجدار، مسار خط سريع يختصر تجاوير شكل مؤذي، وحوله يفتح ضوء ينتهي بانكسار عند برعمٍ صغير، يرفع كفه في سماءٍ تتوازن بخفة هشاشة عظامي.

رأيثُ وجوهاً تعقد حواجبها تعبيراً عن مضامين تفسد تعاليم القناعة، أمكتُ معلقاً بين صورتين تمرُّ مثل موجة محترقة تجعلني أو شك على الجنون.
- لكنَّ يا أستاذ.

يتخلى جزء من نفسي، جزء مشوش بصاق مصمم على الكبت له صلة بالفذارة السائدة، ففزت مشاهد تزاول مواهب، تستحضر صور الغرور، أصبحت ضائعاً، لم أستطع تذكر صونكول، شعرت أنّ هناك حياة أخرى تولد في أعماقي، من حولي أشياء تنفق بهمة في غرفٍ ينفجر فيها وجود يغالي بالحزن.

تسلّلت خلسة أجنحة الخيال، تكشف عن حلمٍ يجمعني مع آمال عشيقتي الوقحة، تبدو مشوشة لكنها تتجرد من الخوف تمسك بيدي حتى لا أهرب من عواطفها، تأخذني في طريق مرتفع، وجهها يخفي فضيحة مخفية، أرتاب من وجودي معها، ستعود صونكول غير أنها تحاصرني في مثلثٍ مظلمٍ، يتدلى منه وحش يثار من العوائق.

المتعة التي أحصل عليها تأتيني من شخص ثالث، يلتمس المغفرة من سكين تطعن بتعثر واضح، أهرب تواجهني أداة التعذيب، يمتد خط فاصل يمثل مقياساً في ذهني، ينتقل باتجاهي رأس مكشوف يطير في الريح.

فوضى في عقلي، فقدت القدرة على التركيز، ممزق تحت وابل الدمار الذي تخلفه الحرب، أبدو نموذجاً لعالمٍ صغيرٍ يتقاسمه الموت والعذاب، الفراق يوصلني إلى الهروب، أدمن الدمار والشهوة على نحو غير مألوف.

الغرفة الحقيقية قذرة، وراء الكرسي القريب وفوقه صورة الرئيس، الكأبة تشع من الأوراق المتروكة فوق المنضدة ذات الأرجل

المستقيمة، وقد التحفتُ ببطانية عسكرية قاتمة اللون، لم أتأكد من نبرات الصوت، كان بلا هوية يتماسك بانسجامٍ مع الأوداج المنتفخة للرأس الدقيق ذو الشارب الغليظ، أستمع إلى الضجة تعبر لجام التشوش لا تكبها أعصاب منهرة، أعجز من رفع عينين متوسلتين.

قبضات تنهال من جميع الجهات، تدور داخلي صرخة مكتومة، ضوء خافت يعترض تعثر مفاصل الأصابع حين تسقط على عظام الوجنة.



أتملّل بين إحساس لا يشعرني بيقين، ومظهر يتجلى بتعثر لهوس اللوم، يتكئ اعتيادي المثبت على طوق، يمارس التصاق فوق الوحدة، ينبأ عن آخر فرصة مكبوتة استدعت اندماجًا يفيض هدوءًا، عثرث على متعة تتضخم بارتفاع يثير اهتزازًا يوحي بإشارة تبادل غريزي، تحفزت بحذر طحالب وجع لا تجد لنفسها مكانًا للمرور بين لغطٍ لا يخفت، أزيز حشرة تحوم بلا توقف، الجفوة تتصاعد بيني وبينه، تتبيس مفاصل الحنق الملسوع.

يزداد نفوري منه، أسمع بقايا ضحكات مكتومة تأتي مع الضوء المنتشر في الرُدهة المطلية بلون أزرق خافت، أشاهد قطرات العرق تنزل على رقبتة السمراء، يمسحها بمنديلٍ ورقي، يبدو عليه ارتعاش ظاهر، تخرج من فمه حشرة مؤلمة، ألمح سلامياته المتخشبة حين عاود الكلام بلهجة هادئة يشوبها الاضطراب، هناك اختلال في اللامبالاة التي أبدتها، خصلات شعري المتدلية فوق جبتهتي تبقيني جالسة في المكان المألوف شاحبة تتجاوزني رؤيائي، قد أحتفي داخل طبقة أفقية مملوءة بأوراق فضية تتوسطها شجرة تنمو بشراسة لاتعرف الاستسلام، أشعر أنني امرأة تنتصب بين زمن لامتناهي يعدو بلا غرابة في خيالٍ يزمجر، وآخر لا أتكيف معه.

تبدلت الأشياء، نحن واقفون، هو يحمل وعاء خيبته في مناطق محرمة بتدنيس، يجعلني أتلاشى أمامه مثل شبح في اتجاه الضوء، يضرب بشدة قدمه على الأرض تشتد كثافة المشهد، تأتي بعدها الريح تبعثرنا، انتشرث في الهواء الجاف رائحة الابتعاد، لكنه يبقى يهمس في أذني.

قامته العالية تزحف فوق دوي بهجتنا، يتبجح بالجرأة، أقفز مثل حيوان بري، أجوب الأطراف المعزولة، شخص ما يعترض طريقي، يجعلني أتسلل صوب الأدغال.

عالمي المشوش فُبة نصفها ذكريات تسفح، أخايد نشرع دائماً بالبكاء، النصف الثاني ضوء باهت يتسلق حافات المغامرة. محاصرة أبحث عن نوافذ مضاءة تدلني على الطريق، حواجز الابتهاج خالية من سر الهدوء، لاح لي وجهه خاليًا من التعبير في وسعه الحاق الأذى بي لكنني مكسوة بالاستغراق، تغمرنني نكهة تعابير تثير عندي أرق الضحية، أتساءل:

- أي طريق سرث؟

مررتُ بين أجسادٍ هشة تؤمن بالموت والحداد، أنحني فوق علاماتٍ تعوم بلا خطيئة، إحساس مخادع يدفعني؛ لأضع سبابتي على متعةٍ تنطفأ تحت وهج رائحة الشم، أصنع دوائر متشظية في رغبة عالم يجثم تحت سماءٍ زرقاء، تتشابك شرائح الزهو تحيل نقاء الألم المستبد إلى ارتخاءٍ، أشاهد نفسي محشورة في نقاط التقاء ملونة، أبدأ بعدها بالميلان، أجر خلفي حجب تتمايل، كنتُ ألهت عابرةً نحو التفاتة هادئة.

نعود أدرجنا إلى حجرتنا، اضطجعنا جنبًا إلى جنب، روى لي بعض الأقاويص وسط مشاعر معشوشبة تتسلق جرف أنفاسنا. تكبر احتمالات بعض الأخطاء، هرعنا نحو نبضات قلبينا صامتتين خائفتين، تنبض الريح في اتجاه المجهول، ثمّة رجل آخر ينتظر موعدى.

أُتسلل صوب الأدغال، يلوح طريق تتواری بین ثناياته أشباحًا تتجول ببطءٍ، بأنَّ خيطًا يربطني إلى نهايتين، فكرتُ بإنهاء علاقتي الزوجية؛ لأنَّ حجم مشاعري المتضاربة ليست مقياسًا لغطرسةٍ تتمعن باسترسالٍ مهين.. في انتظار فرصة لموعِدٍ يتصاعد منه توهج محموم، يجبرني على فك ارتباطي الأول، يجعلني أترك كل شيء مكانه؛ لأختفي وراء نهاية توفر لي مكانًا مجوفًا.

يستطيع شريكي أن يلقي اللوم على جموح النهم، لكني لا أصبر على فراق سردار الذي علمني الكثير، أحيانًا أراه يسبب لي الحمى وأحيانًا أخرى يكون دواءً لدائي، أحسه فضاءً مليئًا بمشاهد تشخص في خيالاتي.

تنتابني نوبة إحباط تسلب إشرافة اللقاء، أكتوي عندها بمخالب الإثارة، كنتُ حرة لأنه اختياري، لكنَّ الإخفاق ينتشر مثل سرب جراد في أعماقي اللامرئية، القرار الذي اتخذته بملء إرادتي استثناء خارج أنماط المؤلف.

حياتنا المشتركة حشد صاحب لمشاعر تعثرها البرودة بسبب وطأة الحرب، وتوافقه الموحش مع زوجته خصوصًا زوجته الثانية التي تعاني الطلق، شاركتُ الجميع متعة الولادة بعربةٍ منهكة، وزفرة تخفي بين طياتها حسرة.

أمي تحمل تصوراتها اليائسة عن حالتي المتلوية، شاهدتُ وجهها يتغير ويتبدل، حكّتْ أنفها، سالتْ دموعها بلون الماء، اختفى الوجه الآخر لمبالاتي.

حاولتُ الابتعاد عن مظاهر الإغواء لكنَّ جرس الهاتف رنَّ، إنه سردار يطلبني، اهتز نخاعي على جرح لم يتجرح.

الماضي يترك أجنحة تتوارث طقوسي المحنطة، قلبي المنهك يحدثني، نحن الاثنان من طينة واحدة، نعيش في عالمين متوازيين يكمل أحدهما الآخر.

الجزء المعتم داخلي يشع، يسوده قانون طوطم، عاد للظهور من جديد، إنه يعني التخلّي عن الألم الأول الذي يحتويني.

أحاول الحصول على شيئين مختلفين هدوء بارد، واحتراق يبشر بالتغيير، احتجتُ إلى درس يعلمني كيف أعيش بلا هاجس يلطخ وجهي المخطيء، تصورتُ أشكالاً غريبة، دهاليز تتحول إلى منزلقاتٍ رقيقة، اضطراب أصابعي التي تتفكك لا أستطيع تحسس الطريق بها، القمل يغزو سروالي الداخلي، صوتي المبحوح يخفتي، فكين يقضمان نبتة ضخمة تنبض بسرعة.

انتابنتي رهبة، تشعرتني بالخواء عندما تتاح لي فرصة المشي في اتجاهٍ واحد، أستدعي تفاصيل محددة، أتطلع إلى السماء، تمنيتُ لو أنها تمطر، كنتُ أبذل جهدًا كبيرًا للاستحواذ عليه، بعد قليل هدأتُ، عدتُ إلى السرير، غطيتُ جسدي بالملاءة من الرأس حتى القدمين، سمعتُ دقائقٍ لا تتوقف صوت مفتاح في قفل.

زوجي ينادي، أخرجتُ رأسي من تحت الغطاء، صرتُ عربية يجرها حصان، أخطأتُ كثيرًا، شعرتُ بالبرودة، إحساس بالخوف يضح في مقبض الرجفة التي تعتريني.

منهمكة في أفكار تتوالد وراء حواجز، تغمرها صور عشوائية لعلَّ
غريزة البقاء، التي أحياناً تتسم بسمّة الغباء حين تبقيني أنتظر وقوع
الكوارث.

في بيت سردار المحاصر، رغم تعلقي به أكون نصف نائمة، يهز
خدر غفوتي توتر يصفع السكينة.
اختفى شحوب ينمو منزلًا من النافذة الغارقة بالضوء إلى أرجاء
البيت المستيقظ وسط ظلال، تخطو معي فوق أشكال، تتغلق حول
رقبتي؛ لتلج عيني حتى نتنفس معًا.
ارتجفت نقطة تضغط على مكان، يمكث في حلقة مغسولة بشفاه،
انتصاف الوقت يرتقي، اختناق يتنامى بانفعال.

والدة صونكول تصفني، شرر يقدح مثل برق يضيء داخلي
المهشم، صوت زجاج يتكسر، الشمس تتلاشى شاحبةً في مسامات
جسدي، تغلق جذوري من الكاحل إلى رقبتي باتجاه مركز لمسة من
احتراق.

أعثر في رماد خطيئتي، شعرتُ بعطش شديد، مشيتُ متحاشية
غضبها المتأجج، تأرجحتُ متدلّية نحو صوتها الذي يطاردني،
ضعفتُ مقاومتي، خسرتُ صداقتي المتينة، خطأ ما حدث سلب
راحتي، أستحضر هواجسي الراحشة التي جفت على ثقب التلميح،
رسمتُ رسمًا بيانياً أزيح فيه رغباتي الغريزية، التي أدمنتُ السعي
في دائرة مغلقة، أتحوّل فيها إلى بركة تنزف عرقًا ووجعًا.

هزيمة تستدعي دبيب الاستلقاء، والهرب حتى أتتكر للحقيقة، حدس

يتفادى أحجار القسوة؛ لأنني أكتم صرخةً مطعوننةً تتجه لأبعد من
صدمة الاكتشاف.

الزوايا الصغيرة تكفيني؛ لأتحرك نحو نزوة تسبح في بقع متوازية
نعاني منها معاً، نضح صاحب بيلل وخز مشاعرنا المثاره، أقايض
زحفاً يخطو برقة مع أقواس تقضم لزوجة وميض يشتعل في
رأسي؛ لأبدو مثل حيوان رخوي.



يسقط ظلّي خارج عظامي باستطالاتٍ، تتخثر معصوبة بأبرة تتبادل أدوار الإهمال، أبذل جهدًا شاقًا للوصول إلى الموقع المتقدّم، وحولي تتواصل الأتربة بلا انقطاع، شعّب مرجانية تطفو في المناطق الرخوة من جسدي، تنقص هلام ذاكرتي، يغلي في جوف المعدة بخار يشبه العتمة، ينقلب الفراغ بصرامة، يندفع القيء نحو سقيفة الرأس، يسلبني رئتي، ويتوقف النبض.

فاحت الأرض الساخنة بلوعة المكان، حيث الألواح الطباشيرية تمتد بتوأم محزن مع أشعة الشمس العمودية؛ لتؤثت الأرجاء المطمورة بلهبٍ منفجر من أسنة الهواء الحار، إحساس النهاية ينتفخ داخل صدري مثل بالون يوشك على الفرقة، كل خفقة تضغط على ضلوعي كأنها ضربة طبل، يمضي مع صوت الزمن العابر بقسوة.

في الشتاء الماضي، عرف الجميع أنه سيتم سوقي لأداء الخدمة الإلزامية.. ارتديت بدلي المفضلة، خطوت خارج نوافذي، شمس آذار منحنتني سطوة لامعة، أحاول بها إطفاء قلقي، يختبئ في رواق الذعر وجه حبيبي، التي ستصبح زوجتي بعد شهر أيلول قبل ذهابي لساحات التدريب والقتال.

تنزلق مواطن محجوزة لمواعيد لا حصر لها من الصعب تصوّر الأيام التي تمرّ بلا رائحة أنفاسها، يوم بعد يوم ترتدي رئتي عبق الهواء، الذي تحركه باستعراض خصلات شعرها المتناثرة. في شهر تموز، قررت التخلّي عن فكرة الزواج بعد أيلول؛ لأنني

كنتُ أحتاجها باستمرار، عرفتُ أنني أمتلك شجاعة راسخة في مواجهة التحديات، ثم حدث ما لم يكن في الحسبان عند آخر موعد لنا، كنتُ مندفعًا مثل شوكة حادة أغرزها بهمة، وأعثر بعدها على حافة الخوف.

مضتُ أربع ليالٍ، وهي تطاردني، أردتُ أن تتركني وحيدًا، في الساعة الحادية عشر من صباح الثلاثاء واجهتني، ثمّة ضوء يخترق أوراق شجرة اليوكالبتوس، التي نقف تحتها، فيلقي بقعًا ضوئية على وجهينا، وتحت ذراعي وصدري ظلّت راسخة في وقوفها تتطلع بوجومٍ شدتني بسؤالها: لماذا هربت..؟

يأتي صوتها من داخل عروقي النافرة، اقتربتُ منّي أكثر، ارتجتُ بقع كونية، فُحِّتْ مزاليج تنعطف بتعنتٍ أخرق سماء الحيرة، تهفو على ظلال ساطور يهوي بلا رحمة، أسمع صوت بكائها، اختفى الوجه، تأرجحتُ أصابعي على ملوحة دمع ثقيل، بقيتُ ساكنًا، أغلقتُ عيني، هبط الضوء ممزوجًا بلوعةٍ تنتزع بقايا حلم يلهث رغماً عنه.

تنحسر رشقة ريح؛ لتخرجني نحو شفة الحزن المتبرعم في ركام احتراق ليل الأرق، أقضم بوحًا يسري مبتعدًا إلى خاطر يحوي أنامل نحيفة، وعيونًا ملونة تقفز بولهٍ مجنون على شفاه حمراء.

يستمر الانحسار؛ ليحدث نشوءًا وارتباطًا يوثق نمطًا من العُرفِ نسيمه (الشرف)، تأكلتُ عواطفي بجفافٍ يشترط صفاء ذابل يتأمل مناطق لاتغوي.

تتنفّس الأحاسيس والغرائز على ثيابي، تمتص الارتعاش المتوارى
خلف هواجس تيارات تتوالى، تحمل وميض نجمة توثق تاريخ
منابع مدينة بدوية.

ينطوي اختبار الرغبة الجانحة على إشكالاتٍ لا تستوعب رواج
التصرع، مهمات تنهض بأسلوبٍ يتضوع بفضاضة الاستعارة،
يشكّل بعمق حكايات يسردها محبون؛ لتلبية نداء الفشل بين حربٍ
مستعرة وحبٍّ يذهب أدراج الرياح، يحوي دلالة الذنب تغلّب عليه
معايير باذخة لكنها تبقى زوجتي، ومسكونة بحبٍّ فاسد تتباين
عواطفها لتبدو سيدة غامضة.

سكنتُ نظراتي، ما زالت الرابية بعيدة، الشمس تتجه نحو المغيب،
أسحب قدمي الخائرتين مشوشًا، تتناوب صور الازدراء في نسيج
تنسل منه رتابة المكان، وفي فروة رأسي تنمو ملامح لون تكرر
مرارًا، شهوة تستنسخ انشطار توازني لإستجلاءٍ مبهم عن معالم
وعرة لطريق لا ينتهي أبدًا.

كل الاتجاهات تعاكس سخرיתי التي تتحداني بإتقان، تساءلتُ:

- كيف يمكن أن أكون حيًا وسط نجيع يفتعل مديات متناحرة؟

أفتتح سلسلة حقائق تعوي في بركة مياه راكدة لا يميزها الوضوح؛
لأنها تشيع في القلب قسوة متضاربة.

ثمّة تلميح يبتز خواطري القاتمة، تتحرك مثل قدرة الإيذاء في زمن
يختصر الحياة على مساحة القدمين.

يشرع التحول في أشباه الأصنام الذين أدمنوا الخراب، عندها أعاني

ومضة تستعر في سطوة لا تفسر استهجان الانحدار، تضم قيماً تتحلل بمجرد لمسة قلم أخرق، يتقن صنعة الخوض في تفاصيل تحكي وجعاً، يتسرب من أخطاءٍ لا نحسبها، نتعري تحت مشاهدنا، نسخ مشوشة تحتاج لاستحضار الإنطواء؛ ليرسي قوالب تتقدّم على نحو فضفاض تعبيراً عن إشاراتٍ، تشيع اقتباساً هرمياً بالموت المجاني.

انتابنتي رعشة محببة، أثارت عواطفي، مثلت تفسيراً حاذقاً لتلافي استحضارات تنمو في وريد نزوعي للهرب منها، تشوهت مشاعري في محاكاة احتواء قواعد اللعبة، لم تظهر جوانب مهمة للعلاقة من خلال درجات نسبية، تتقطع في أفكار المتداعية.

حالة مضنية مبالغ فيها لا تعترف بعيب الأقدار ما بين طيش العشق، ومرثاة الأعراف تتشكّل تقاليد، تتجسأ استعارات تعكس تلون مأساة الذرورة.

اعتادت جثتي السعي لفك رموز منحرفة، يدعي (فائز حسون) حرصه عليّ، ويسلم تقاريره لشعبة الاستخبارات.

مع تلك الغيلان، تبقى الزوجة محاصرة باغتصاب فرضية الأصلاح، تتلقى الضربات باندماج غريب لا صلة له بالقيم الأخلاقية، وتبني في براري الحراجة مؤشر السخرية، أصبحت موضع ريبة وفق معايير مخصوصة، تتضمن بيانات لا تحمل تظمين راسخ، كل الفاعليات تركز بانتباهٍ على احتياجات تحوذ تدويناً لا يتقيد بقواعد.

كتب في أوراقه (نهض اليوم/ صلى الفجر/ في العاشرة أطلق نكتة مسمومة/ تمنى فيها لو يتقمص عزرائيل ساعة واحدة).

شحنة متفجرة لا تلتزم بالأعراف التقليدية، تبعث شرراً يشتعل في حضارة تتضخم في مداراتٍ، تحوي شقوفاً بداخلها دمي متحركة تفترق في ضوء النهار، وتلتقي مع كائنات العالم السفلي في منظومة الليل بأساليب بدائية لا تتوافق مع ثنائية الإدراك الحسي، والتصور لاقتراحها الإثارة الصاعقة.

مازلت عائماً، تمنحني الضوضاء والفوضى لمعائاً، يتبع أذياًلاً متباينة لظلّ أشخاص مختلفين، في زمن الاحتلال اختبرث زوجتي إتقانها للغة الإنجليزية؛ لتحاول إحداث انعطافة في حياتنا، رغباتها الصريحة تتقافز بعدم اهتمام، ما جعلني أذرف الدمع.

حضر اليوم أخوها الأفاق حاملاً معه دناءة متناهية، فقد سحب أذني بشكلٍ مؤلم لإيقاظي من النوم، المنتشرّد الماكر يوضح طريقة تصرّفه المشابهة لمحاكاة غير مألوفة.

علاقتنا تتنافر الأمور الهامشية، تدفع الموقف نحو التآزم، أبلغتني بعد منتصف الليل بعملها، مترجمة مع قوات الاحتلال أنها اقتراني الثاني بعد أمينة الصندوق.

أخضعتُ هيجاني عن قصد إلى قنواتٍ حسية؛ لتكوين مشاهد تختزل حقيقة متخيّلة، دفعتُ إحباطي تحت رحمة التحفيز، والتأمل لمسارات عملية تشكّل اندماجاً يصل حد النضج التام، والسعي لتسليّة النفس بما هو جديد من الأشياء.

لم أعد أشعر في النهاية بالحاجة للإدلاء بأي تعليق، فالعلاقة المتبادلة المتنوعة تثبت قوتها في الانعكاس المتبادل، حتى يوسع احتمالية الحصول على خاصية الإثارة.

الهواء البارد والمتعفن في المطبخ، يسهم في كآبتي المندمجة مع حلول الضيف الثقيل، في جميع الزوايا تشتد صور القتامة، تقطع كوامن متضمنة خيالات ساخرة لعوالم، تستبدل الفرص إزاء محن تبرز في جذور مترسخة بأنماطٍ لا تخلو من الدعابة.



حاصرنتي كثافة الجدران، تسبح في دوافع دمي المخيفة، ووسيلتي للرؤية حدود ذاكرة، تتحسر عنها البراءة خارج زمن ملوّن بلون تتبخر فيه أطياف ضوئية، تمتد على حافة انهيار يفضي إلى الخروج، فكرتُ:

- ينبغي أن لا أثير حماقة، تنتقل وسط جزر الفوضى العائمة حول دوار الغثيان الذي ينتابني.

أردتُ التعبير بلغة مسهبة عن معاناة تتفادى التكرار، جينات تشكّل وعياً مبهمًا، يرفض الاعتراف بوصفة تميزني، وتجعلني لا أأدر الصمت.

تبدّل مفاجئ، ينصهر بمزيج من العوز إلى الرقة، وصخب يغطي وجه أخطائي التي تكتسب رباطة جأش، تحدد عاطفة تجمعني برودة فعل آلية بعد أن فقدتُ قدرتي على الاختيار.

تخطيطٌ فواصل لا تستثني سجل حياتي؛ لأنني لا أتوقع حقيقة كاملة تحلّق على قمة الهلع الجاثم فوق نتوء غريبة مصنوعة من تزلزلت علاقة، تشعرنا بأننا الشيطان الوحيدان المترابطان في ارتجاف الزلزال.

البقاء بين قبضة مشاعرنا المتسمة بالقوة والشفقة، نمثُ عواطف متدالية من فضاء المستحيل، نمارس هوانا دونما اعتبار للعوائق ومعايير تتظاهر بפורان الألفة، بشرة أوهامي تدرك قضية اختفائه، والخشية من نمطين مختلفين يتصدران مشاعري في آن واحد.

تغلغل أفكاره في هلام ذاكرتي وصورته التي لا تفارقني، جزء

مظلم يشخص داخل طيات نفسي، يبقى معلقًا بقسوة بين وجيب صدري الذي لا يتوقف، وعقلي المصمم على أنه ميزان بين انشداد لماض لا يكف عن التآرجح، وحاضر يحوي أفق فضاءات تنذر بعواصف رعدية.

احتجتُ إليه، سامحتُ جميع أخطائه، أريد معه فهم المحيط الذي يحتشد برغبة مضمّنية لا تفني إحساسًا عميقًا، يمتنع عن مساومة فلك مدارات تبقيني تحت سطوة الدهشة، حاولتُ جاهدةً أن أُمّر الفرق بين الخيال الذي يستلّبي، والصورة الجائمة فوق أكتافي حتى لا أضطر إلى إطلاق صرخة أضمن فيها شعور عميق، يخبرني عدم الخضوع بسهولة؛ لأنه مازال موجودًا في مكان ما.

أصبح وجوده داخلي عدوى، تجعلني أعاني من ضربات الاستهجان التي ترتد إلى مأوى، يجعلني أحمل صوته في طيات هوس يألف الأسى؛ لأفهم كيف اختفى من حياتي..؟! وأحتفظ بتوددي الظاهر في الأجواء.

دخلتُ مكانًا يشبه بقعة منحدره من صخور الخوف البارزة في أروقة الاستلاب، لم أعرف ماهي القضية..؟ شعور الألم والاضطهاد، يراود أعضائي العاجزة عن التقدّم أو التراجع، والأرض تغور بعيدًا عن الأنظار، عرفتُ مشكلات مستعصية، حاولتُ التخلص منها، راقبتُ وجوهًا بانث عليها ملامح باهتة حصيلة إدراك رهيب، عجزتُ من التعامل معها بحذر.

المدير الجالس خلف المنضدة، يبدو غاضبًا، ويسرع في تقليب

الأوراق التي أمامه.. صمت مطبق، بوسعي تصوّر كلاب تطاردني
تنتشر في الغرفة المطبقة على أنفاسي، نتوء من مسافة تقبض على
غضبٍ وإدانة متفجرة.

ألمحه ينقر بإصبعه الأسمر على الحافة نقرات مستمرة، أحس
بجرح مفاجئ يزحف بلزوجة قبيحة على روحي، التي تذعن
بارتباكٍ لهذا الوحش القاسي.

اهتز فاصل مجعد من كراهية بذيئة، ترغب في أخذ زلتي التعيسة؛
لانتزاع الوجود المنفصل بحكم مشوه، يتلف خصوصية افتقاري
لزوجي.

توقفت مظاهر الهرب؛ لتعطيني وقتًا يتلبس حالة تمتلئ بالضنك؛
لتبدو جريمتي شديدة البشاعة، وهسيس مشاعر غامضة تمهل
تشبثي بالبراءة، وأتأكد بأنه نظام للأشياء الواهمة، إذ ثمة إذعان
غريب ساعدني في رفع نفسي، والسير بخضوع تام في هاوية
الظلام.

ترعد داخلي سداجة مصطنعة، حاولت ألا أفكر في شيء، تأملت
السواد الحالك، لكني لا أستطيع الانقطاع عن التفكير، فجأة شعرت
بيدين كبيرتين تحجبان عيني، التفت فإذا برجل الأمن يلحقتني إلى
البيت.

صحبة غير ظريفة تفضي إلى علاقة متصلة، مشاهد تختنق في جو
مضطرب لا يسعفني بالاحتجاج، ما يخيفني انتفاخ بطني، وأثار
الحمل التي بدت واضحة، لم أبادر بتوضيح معاناتي أمام رزكار

ابن زوجي الكتوم، ما أكبر الشبه بينه وبين أبيه ما يجعلني أبذل
جهدًا شاقًا؛ لأتخلص من نظراته.

ومضة طرف على جسدي المعالج بحزم الإسقاط، وارتياح يعلل
تناولي دواءً مسكّنًا، أظل أتنفس ببطءٍ لكنّ وجعي لم يخف.

تحاصرني صديقتي آمال بعاطفةٍ توحى إليّ بمعان رقيقة، أغمض
عيني أتمدّد على الفراش، الانتفاخ يختفي، ابن شريكتي يقف بالباب
مشدوهاً، يرئُ الهاتف أطلب منه إغلاقه.

استحال العناية إلى لامبالاة، توثت نوعًا من الغوص في كيفية اقتحام
خسارة أسست علائم محاولات أبذلها دون طائل لوقف التماس
الكر.

حضرتُ أمي، شعرتُ بالارتياح لكني لم أتجرأ على البوح،
وتحايلتُ على إخفاء الخطأ، خالجتني رعدة تحمل انفعالاً مصطنعًا؛
ليرتبط بجهدٍ كبيرٍ يقلل استيائي.

دنوتُ من الرجل الذي سبب مأساتي، أو مأتُ بحركة أفضتُ إلى
انحراف، توثبي الطبيعي حين يخص تعابير تتيح لشعور احتمالات
وجود بؤر، تطلق مظاهر، تسافر قسرًا في شهقات إنذالي.

البقاء على قيد الحياة حالة أحسبها بلا هدف، الأمور المختلفة
تستنتج حاجزًا من الحزن والخوف، غدًا تبرح والدتي دون ضجة،
وتعاود آمال بقاءها معي بعد انفصالها عن زوجها، نبقي نسرح في
ذكرياتنا، نسترجع في سداجة بدعة تميل إلى ترجيح، يكتسي
صورة وضعتها في سلوك زوجي الغائب.

يدهشني تيار مضرب، يتسع في فجوات فقدتُ جموحًا خفيًا، بعدها
يأتيني شبح يقسم حياتي قسمين، خيبة تكتسب انحلالًا يتفوق على
الاشمئزاز، واحتجاجًا يغلق اختيارًا مزعومًا لا تتضح علة تمرده.

يعميني ضوء باهر ينبعث من زاوية الغرفة، بعدها يثب قرصان
متعب، نظراته اختصار لمهمة تنوء بالانحلال، أبتهل في سري،
أسرف بالدعاء حتى أتخلص من الشبح الذي يبيت زمنه في مفاصل
زمني المتوقف، يحرك أوهاماً تتحلى بفضائل تبدو نقية، لكني
أعترف لنفسى أنّ في داخله احتقارًا يثير اشمئزازي، يحدثني عن
الخضوع بأفكار تضرب مدى عمق، يشبه السكينة حينما تنعكس في
حجب تتأمل مزايا الاحتواء.

بعد ثلاثة أيام من هذه الليلة ظهر لي بصورته الحقيقية قائلاً إنه لم
يعثر على الخليفة.

في ذاك المساء كانتُ آلام الإجهاض تتمطى داخلي مثل لهبٍ
مستعر، ما بين الوجع والخيالات الطافحة في ارتياب يوشك خرق
سكوني، مضى زمن مثقوب، يعارض سير سماننا.
عالجتُ نفسي بالانزواء، أجلس عاريةً إلا من قلبٍ مفعم بهمّ شديدٍ،
أبحث بلا احتمالٍ للأذى عن فرصة تزودني بشجاعة.

خالجني رنين، يسري في بدني كله، يجعلني أرتعد بينما الدمع يغمر
عيني، ما من شك مذ فارقتنا سردار لم أغمض جفوني بهدوءٍ مريح،
كنتُ أشتاق إليه، تنهض داخلي خواطر لا حصر لها.

أضع يدي على ذراعه لوداعه، يقفز بيننا من جهة الهدايا المركونة

في الغرفة شبح يعوم في الهواء، يرسم بأصابعه رداءة لا معنى لها،
تبتعد في رغباتي المكبوتة قسوة تتمرغ بالغيرة، تترك جذوراً،
تخوض برعشة منتظمة، تخجل جسدي المسجى دون وعي.

يفتح أشداقه الضخمة، حوَّلتُ بصري عنه، شاهدتُ في ساعة
متأخرة بيتي يختفي في أعماق فوانيس الشارع، تحيط به دوائر
أقمار تتجول على طول التخوم المحيطة بالمدينة.



وجع يتلوى في سقف مرثية تناور، إرث يحتطب نصب، أمكنة
تنزوي شرانقها عند جفاف عيني المفقوءة من حسدٍ لم يتوقف.
شكّلت عندي انتكاسة، تمضي عبر فجوات عمري المبعثر،
وأحلامي التي تعوي بلا أنفاس ترتب عليها إنطفاء نظري من
الجهة اليسرى.

غادرتُ إلى الأبد مناطق تحرك حواسي المضطربة مثل وخز
دبابيس، حملتُ فظاظة مهملة في سلوكي، أحتمي به كمظلة تقيني
عدوانية أحسبها تندفق بنزوة، تقضم فهقات تفترس شقوق نفسيّتي
المتعبة.

أصبح وجهي المفقوء بصمة تحدد للكثيرين موعدًا للنحس، جعلتني
أكتشف كره الآخرين، وشفقتهم الذابلة في أصواتهم المنكسرة.
حاصرني هذا الكائن الهاطل فوق هضبة، تتكئ على سفوح نظرات
المحيطين بي، كنتُ ألمح إشارات الازدراء تتقاطر خلفي تعبيرًا
عن بغض لا يمكن تفسيره سوى هذه العين المعطوبة، بقيت حسرة
تزحف واهنة على رغبتني في الوجوه، التي تبعد عني حين تراني
عند الصباح، كنتُ مثل داءٍ دخل المدينة، أسمع دمدمة تلوك صفير
التشاؤم، الجميع يتململ في استجابة تتظاهر بالسخط، وفي حدود
التلاشي ألصق يدي على نصف وجهي المغلق، وأمضي في سبيلي.
أكثر من يراوغ حتى لا يقلقه منظر وجهي، زوجتي الأولى لم تكن
فخورة بي حين تسحبني من يدي بتبرم واضح، ويبقى الصمت
الواهن، ينتقل بين حجرات الدار بهيئة دوائر، تنزلق في محاور

مصممة على تخفيف وطأة الصدمة حين يحتل غبارها جسدي.

أشم رائحة الحذر، فيطفح الدمع يبيل خدي الأيمن، وأنساق بعدها للأنزواء قرب باب الدار، أسمع صوت جارتنا تنادي ولدها الصغير، تسكت ويتبرعم داخلي وهن، يوحد عناصر تتحلل إلى ألوان داكنة تصب في انغلاقاتٍ، تنطوي على صور مرعبة.

يتقاسم تمازج غريب بين جرح ينكفي، وتطلع يرسم منعطفًا في محاولة استمراراري بالتغلب على مأساتي، كان تعويضًا لا إراديًا عن خسارتي الجسدية والنفسية.

تحور يطرأ داخلي بشكلٍ غريب، كنتُ أرى الوجوه تملؤها الأصباغ الفاقعة، وجوه متغضنة، وأخرى عابسة، وبعضها بلا ملامح محددة، يتبادلون السخرية بينهم، يتناولون الاتهامات المضحكة، سحن أخرى تحاول ترميم تقاطيعها الاستعراضية. يلتهمني استغراق مضني في رصد الحركات المحيطة بي، لم يعد الآخرون يتشاءمون من رؤيتي.

كنتُ أشعر بحُمى تنتابني تدور في جسدي؛ لتستقر بعدها في فمي تحديدًا على سطح لساني الذي بدا سليطًا، أحسه يتحرك بين أسناني، ويتلمظ فوق شفتي؛ ليبدو وقحًا لا يمكن السيطرة عليه، حركاته الانفعالية تنبئ عن ألفاظٍ خشنة وجارحة، أحيانًا يكون مصدرًا لمشاجرة تنتهي بلكمة على عيني.

تتفاقم البشاعة، تطلق في الفضاء تلوًا مخيفًا، تنتاب عيني السليمة ومضات تتحسس أعماق لطمه قاسية، تحمل وخز ظلام دامس عند

جارتها، تفصح عن سبة سوء تؤشر الفاصل بين العالمين أحدهما يجلب الدمار، والآخر يثير حزناً يتفحم على أعتاب دوامة الانقضاض، تسحب وراءها رموز امتلاك لحظة الإمعان بالتهام مفاتن جارتى المغربية.

تميل صور البوح في التقاط المحاذير، حاولتُ أن أُقيم رابطاً بين ما أراه وما أسمعه، لكنَّ الغشاوة ترسم أفقاً مشوشاً يسهم في ضبابية الصور المبتوثة حولي بأشكالٍ هندسية متباينة، لا تبعث على الطمأنينة، إنه انحسار يهدد بالانطفاء التام.

تتفاقم حالات الذهان من خلال ربط عشوائي، يتجاوز أطر معتادة حتى يصبح زوج آمال صديقي المخلص، يحفظ لي كل التوقيتات، ويسحبني من يدي التي نسيْتُ شكلها، يعيش معي بانقيادٍ يتحاشى الاصطدام.

لا أتجرأ على اختراق ظنوني؛ لأنها تحصي ضغط ضعفي المسترسل في جسدي الذي يمنحني اعتلال واضح، ينشيء ظاهرة تسحبني على عصا أتوكأ عليها، وأحصي خطواتي المتعثرة على ترابٍ يجهب أُملي في رؤية الضوء الذي أفنقده.

أرزح تحت وطأ العتمة التي تسلبني اختياراتي النهمة، تحيطني أسوار غير واضحة المعالم، لكني أظلُ أحنُّ لأيام عيني المسلوبة بؤبؤها.. فتدنو منِّي عينان مشدودتان إلى سماء تستيقظ بلا مطر، تعثرثُ بغبار الإثم المنتشبت بالضوء الداخل من النافذة المحاطة بعلاماتٍ تتواصل بإيحاءٍ، يجوس في أعماق حيرتي الضامرة.

- اخفض صوتك.. بلا صياح.

ترسم الفتحات الصغيرة دوائر، تطفو فوق صوت حذاء يمرُّ بضجة، تتربص توهج ينمو في خريف يصاحبني؛ لأبدو مبللاً بارتعاش، لم يجرؤ على ملامسة نصف حلقة ملوثة باضطجاع، يختزلني مثل جسر حجري.

الناس يتحركون في موعدٍ، يعكس أضواء الغروب على الجدران الرابضة في محيط مشهد قوافل السيارات، والباصات المرتجة بحركاتٍ منفعة.

نزلتُ باتجاه النهر محاطًا بالهواء، اجتزتُ أماكن تقبع وسط صراخ وضجيج، يجري مع صخبٍ يتملص من تراشق إطلاق النار.

طار غراب، وهو يطلق نعيًا قويًا، رحثُ أتسلل بين أشجار نمث معزولة عن الجرف المتآكل، بقيتُ منتظرًا حتى هبط الليل، تتدحرج فوق الأجمة لزوجة تكتسي لون وحشة مستبدة.

يتأرجح وعي أطياف أشياء قديمة، أتطلع إلى عالم يرتجف بشوق، حين تلامسني يد مخلوق آخر، تنضج أحاسيس تتحرك داخلي مثل بذرة، وإذا بيد ضخمة تضربني في منتصف ظهري تحت لوح الكتفين، قال صوت أجش:

- ماذا تفعل هنا؟

جفلتُ، تعطلتُ حواسي، رذاذ لغط يمسح رأسي، سيقاني تخطو خطواتٍ مبعثرة، الهواء الحار يغطي جسدي المتكاثف في سيل الصدمة.

تجمعت في بؤرة الظن دهشة مريبة، وانغمس حظي العائر في
عوز، يتجاهل ولعي للهروب ثانية من الأيادي الخشنة.
ارتجاف يحشو ندمي، وتهزأ بي وجوه، جف عن ملامحها الصحو،
يزحف على ظهري غضب يمتطي تساؤل لا قرارة له.
- لماذا.. لماذا؟! -

فكرتُ بالشمبانزي، صورته لا تفارقني، فلقد كنتُ أعامل معاملة
القرود.

موجات تسحب عتمة متحفزة تحاور شمس أفلة، الملم انفعالاتي
أعود أمضغ حساً مبهمًا حين أقترب من الحوض المليء بالأسمك،
الذي بدا كأنه ثقب يحتوي ارتباضي، وينافق بوح شفتي التي أحاول
سد الجوع بها، وأنا أقذف البيض المسلوق باتجاه سطح الماء
المضطرب.

تتقافز الأفواه المستديرة بأشكالٍ محيرة، ينصهر داخلي وجوم معفر
بظلّ مرتبك، كل يوم تأتي الشاحنة السوداء تفرغ صناديق البيض؛
لأقوم بتقشيرها، ورميه نحو خرافة تركد في أنفاق يرطبها البطر،
فتنوب آهة نددت بحسرة مخنوقة تبعث أنبيئاً خفيًا يجعلني أصرخ:
- أحتاج زمنًا ينقع جوعي بماءٍ لا يستريح عند الأحواض السرية.

تهبط ظلمات متناثرة من كوة حائرة، تسبق رائحة الخوف المنخور
في حطام، يمسح أصص الورد الممتد في الأرجاء، يجرسها رجال
أشداء.

ثُمَّ مَنْ يَسْخِرُ مَنِّي حِينَ تَحْوِينِي الْغُرْفَةَ الضَّيْقَةَ؛ لِأَبْدُو مِثْلَ
الْمَجَانِينِ، بَعْضُهُمْ يَحْمَلُ سَجَلَاتٍ يَحْصِي بِهَا أَنْفَاسِي، وَآخِرُ يَحْسَبُ
قَطْرَاتِ الْعَرَقِ الْمَتَكَاثِفَةَ عَلَى زَجَاجِ نَظْرَاتِي السَّمِيكَةِ بِسَخْرِيَّةٍ،
تَسْتَنْشِقُ رَغْبَتِي الصَّرِيحَةَ بِالْبِكَاءِ.

الزَّمَنُ يَجِبُو خَلْفَ سَحْنَتِي الْبِلْهَاءِ، أَفْتَقِدُ طَعْمَ أَشْيَاءَ كَثِيرَةٍ، يَنْوَى
صَمَتِ النَّهَارِ فِي انْطِفَاءِ اللَّيْلِ، سَكُونِ عَنِيدِ يَمْرُغِ عَطْبِ السَّكْوَتِ،
يَسْتَنْفِزُ عَمُودِي الْفَقْرِي صِرَاحًا يَنْمُو فِي أَعْمَاقِي، يَنْفَجِرُ فِي ارْتِعَاشٍ،
يَفْتَشُ عَنِ طَرِيقٍ، يَشْجُ عَرِي الْكُتْمَانَ.

أَسْمَعُ مِنْ بَعِيدِ صَوْتِ مُؤَذِّنٍ، تَنْشَطِرُ شَهْقَةً، تَنْتُمُّ عَنِ نَتْوَى غَامِضٍ،
يَطْفُو مِثْلَ فِقَاعَاتٍ تَنْحَسِسُ فَلَاقِي الْمَتَضَاعِفِ بَانَكْمَاشٍ، يَتَرَجَّلُ مِنْهُ
الرَّعْبُ، يِرْتَجِفُ بَانَحْنَاءِ زَاحِفٍ، يَمْتَزِجُ مَعَ الْأَضْوَاءِ الْمَتَلَأَلَّةِ عَلَى
سَطْحِ الْأَحْوَاضِ اللَّعِينَةِ.

دَخَانَ أَبْيَضٍ يَتَصَاعَدُ أَمَامَ عَدَسَاتِ النِّظَارَةِ، يَغْلِقُ حَوَاسِي لَمْ يَبْقَ
سِوَى فَمِي الْمَفْتُوحِ مَرْتَعًا لِلذَّبَابِ، صَوْتِي الْمَلْهُوفِ يَمُورُ مَعَ
أَصْوَاتِ حَرَكَةِ الْأَسْمَاكِ النُّشَيْطَةِ.

وَمِضَّةٌ تَبْدُدُ التَّوْحِشَ، تَتَوَالَى جِينَاتُ الْوَهْمِ، تَتَأْمَلُنِي بِغَرَابَةِ مَتَقَرَّدَةٍ،
تَعْجِزُ عَنِ تَحْمَلِ جَمَالِ الْمَكَانِ وَرَهْبَتِهِ.

عِنْدَ الْأَفْقِ تَذْبُلُ ثَمَرَةُ الشَّمْسِ، فَيَنْسَكِبُ سَائِلُ مَعْتَمٍ، يَغْطِي السَّمَاءَ
بِهَدْوٍ يَشْبَهُ الْحَفِيفِ، فَيَعْتَرِينِي الْخُورُ، أَسْحَبُ أَقْدَامِي الْمَتَيْسَةَ مِنْ
ثَقْلِ جَسَدِي الْمَتَكُورِ عَلَى فِجَوَاتِ رَغْبَتِي الْعَارِمَةِ فِي النَّفَازِ.

وَعَبْرَ سَنَوَاتٍ لَا تَعُدُّ وَلَا تَحْصِي، تَغْفُو طُقُوسٌ شَكَّلَتْ مَسَافَةَ تَبْتَعُدُ،

وتقترب من حافات لا حدود لها، رهبة تنتصب في الحوش تحت
سماءٍ واسعة.

بعد مسار طويل، تلبسني إحساس مبهم، وتعابير مشوهة تبعث على
الحزن، غطستُ في سحتني البلهاء علامات تند عن سيماء غريبة
تحاور ضعفي، قبل أن تحل فجيعتي الأخيرة، كنتُ أفكر بأنَّ عليّ
نذر، فأقوم بنذر شموع أوقدها على خشبةٍ صغيرة أمام أكتاف
(الكرب) الخشنة.

شعرتُ أنّ أصابع قدمي باردة ويابسة، كنتُ محتاجًا لمزيد من
الهواء، قلبي يخفق بشدة، والتعب الشديد يتمرّ في جسدي الناحل
رغم كل شيءٍ، كنتُ أستمع لما يقول:
- كلما أمرُّ أرى في عينيك تعبيرًا للطاعة.

الراية الخضراء الموضوعية على الجدار العالي، ترفرف في
الريح، عكستُ أطيافًا شبحية، داهمني دوار، اعتاد أحدهم في
التحدُّث معي عن ضرورة الهجرة.

تتكسد حزم الضوء بارتخاءٍ على الجدار المقابل؛ لتكشف حلقة
متصلة فوق الظل المرسوم بشكل لوح رمادي، يشمخ فوق تراب
ندي، يميل إلى اللون البني.

مذاشتداد معاناتي، الفراغ جعلني أتحوّل إلى سحابات دخان أبيض،
فينتابني شعور بالبرد، وأتكوم جوار نخلة، تتسلَّق أعشاب أصابعي
المرتجفة على فتات الحجارة المرصوفة حول الغرف الرابضة
بهودوءٍ غير معهود؛ ليضيق الممر بعد المنعطف عند الزاوية

البعيدة، ويفتح الفضاء على الدرج الوحيد حيث تنمو في أحشائه
بصمات أقدامنا المنهكة.

قد يكون كبير سني حد من البصر، لكني كنت متأكدًا أنّ النخلة
مازالت موجودة، حيث زرعتها قبل أربعين عامًا، حملتها داخلي
مثل مشكاةٍ لا تعرف الإعياء.

ربما دمي لا يسري في عروقي بصورة صحيحة، لكنّ الليلة حينما
غادرني الجميع بعد أن أصروا على ضرورة إيجاد حل، كانوا
يحتجزون داخلي إنحيازًا، يدور في رهاب أماكن ضيقة لا تتغير،
طلبث منهم تركي وحيدًا.

تمددت قرب الجذع، حركت المسبحة بسبابتي، أعواد السعف الملقاة
بإهمالٍ، الصمت مطبق، الريح تصفر بين الحين والآخر، العتمة
تزحف ببطءٍ، تبللّ الغرف المزوية بوحشة مفاجئة.

يخنفي جزء من وجهي القاسي تحت ظل قشعريرة، تستدير مع
نظراتي الحائرة، تدرجات لونية أكثر قتامة تصل ساق النخلة تدفعها
هبة ريح.

سمعتُ صريرًا، يأتي حاملاً حكايات قديمة، تنضح صور الماضين،
تجيء وتذهب منزلقة عني مثل حلم يتكرر بارتخاءٍ، يضيفي تزجج
على جيبيني المربوط باليشماغ.

انفجر صوت مستمر، طقطقة تسحبني نحو مستنقع الذعر، النخلة
تستغيث كما لو أنّ أشباحًا تطارد بقائي والمكوث بأمان.

حملتُ بصمتٍ مترفٍ، خفقةً تضغط على هضبةٍ روحي، تغرز في رأسي أكوامًا من علامات الاستفهام، حاولتُ الصراخ:

- كيف يتركونني وحيدًا!؟!

عيون ملونة ما انفكتُ تطالعني، تستمع إلى الأصوات الآتية من جوف الجذع، البيت لم يكن سوى جدران فارغة، وأبواب صدئة مغلقة بالمزليج.

شقتُ طريقي ماشيًا فوق الطابوق المرصوف، أمشي والهمهمات تجلجل، فكرتُ بالعدو لكنها كانتُ تقنني أثري، انتابني شعور سيئ، شعرتُ كأني سأموت، تنفستُ بصعوبة، أغمضتُ عيني، عدتُ، سمعتُ تدفقًا من كلماتٍ مبهمه، عضلات ساقِي خائرة، حدقتُ بي عيان مفتوحتان على سعتهما، شبكتُ أصابعي فوق رأسي، ابتلعتُ الهواء بصعوبة، نظرتُ إلى لمعان سيوف قديمة تبرق في وجهي، التفتُ حولي، مشيتُ مبتعدًا، طويتُ ذراعي فوق جمجمتي كأنَّ ذلك يحميني.

ثمَّة صرخات تشتبك مع صدى تنفسي، تتداخل النغمات، عتمة الغيش توحى أنه لا نهاية للغرف، فراغ ممسوخ، فناء البيت ينبض بالاستيقاظ المبكر.

النخلة ترتجف، صوت الأذان يصدح، هدوء عميق يتردد في اختيار مهمل، ضجتُ الغرف بغيار متعكر، تهاوت أوراق السعف، انحنى الجذع، كان وشيك الوقوع، ثم هوى عبر صوت يذيب تبلد أحاسيسي.

ارتمت أذواق التمر، التي لم تتضح بلونها المخضر متناثرة في
الموضع المعتم، تحسست وخز الجريد يلسع عضلاتي الواهنة.
يتأرجح باب مفتوح على سعته، صدر بعدها صوت ثقيل مكتوم،
يضرب الأرضية، اصطدمت كتفائي بجدار، جفلت، تلاشت جثتي
تحت وطء اصطفاق باب يغلق، وشعاع ضوء يغطي وجهي
المدمي، هدأت نبضاتي، وأغلقْتُ عيني.

فرقعة وضجيج يتركان آثارهما على الشكل الهائل المنتصب
أمامي، أراه يقرأ علامات تخطف رموزًا، توحى بضعفي المستمر
وجبروته، تأرجح الباب المفتوح على سعته، خطأ خطوات إلى
الأمام، وعلى الفور انطفأت الأضواء.

اصطفق الباب، سمعتُ صوتًا يأتي من الظلام، حدقتُ بعينين شبه
مغمضتين، كان شبح يحجز الضوء عني، تشوش ذهني، لف
ذراعيه حول صدره، وسألني:

- متى أتيت من هناك؟

جحيم يوخزني وخزًا خفيفًا.. لم أقل شيئًا، حاولتُ دفعه بشدة أو
أنزِع سلاحه، لكنَّ هناك نَمَّة ما يغريني بقتاله، لكنه يستطيع قتلي
بسهولة، أطبقْتُ قبضتي بصلاية شديدة، فمزقتُ سترته البالية،
أغمضتُ عيني لحظة، سمعتُ تدفقًا من كلماتٍ لا أفهمها خارجةً من
لا مكان.

تحسس الفقرة الأخيرة من رقبتي، نشر بياهامه سخونة تكتنفها
حرارة لا تتناسب مع مهام لم تعد مقتصرة على طوق، يدور في

اتجاهات مسطحة ودائرية، شعرثُ بأنَّ جلدي ثقيل، وفقداني معالم
الطول والعرض.

انطوتُ داخلي مفارقات عجيبة تتشابك فيها عناصر متناقضة،
وادعاءات تواصل استنساخ متواصل، حملني بين إصبعيه
وحشرنني في نئوءٍ، يعتمد التعارض بين خاصرتي، وجانب من
ظهري المطلي بألوان براقَة.

يستيقظ في جوفي تعبير مبهم يشبه الحلم، يقربني من شكوكٍ
متجذرة في واقع يهتز، فيكشف هراءً، يرسم صورًا تتخيل الواقع.

بعدها يطل موقف، يشق حدود نزعة محنطة بصور ثابتة
ومتحركة، تتحول نحو صياغات محاطة بأطر متشنجة؛ لتحرك
مساحة رغبتي المستعرة حتى إنه لا يمكن إقصاؤها أو تهميشها؛
لأنها عملية تتكون من صورٍ حسية تتفاعل بحرصٍ شديدٍ للإتيان
بأعمالٍ مشينة، تفضح عروق الصمت، وتغتال أسطورة الكبت
المتراكم فوق حواسي المشيِّدة على خصوبة جذر يهمني إشارات
مغلقة.

يطلق زفيره الحار، حرَّك يده اليمنى، توقف قليلاً محاولاً إخراجي
من المكان الذي وضعني فيه، فهمتُ أنه يبحث عن نزوة، انتقلتُ
أصابعه النحيفة؛ لتضغط تحت سرتي، شعرثُ بعدها بسخونة
مربكة، كانتُ محكومةً بمنظوماتٍ شديدة الحساسية، تنهياً خلالها
أصابع لضوءٍ مبتسر مع انتشار في حفرٍ مضطربة، تخرج إلى
السطح تأوهات.

تحملتُ عبء تعسفه ضمن بلورة حكاية، تجدد معاييرها الصارمة هوة من تيارات متعاكسة؛ لتفضح أفق صور إباحية تستنبط خلفيات تعلوها طباع منفرة، بعدها تشققت سلطة الرفض؛ لتعلن فشل ذرة نابعة من ارتباطاته الروحية، فكف عن الحراك.

مارستُ اجترار زحزحة تتعارض مع تلك النظرة، التي أختلسها من اللقطة المثيرة حين أنكفء نحو الجذوة بلامح تمارس نمطية افتراضات موجعة، تفصل بين محورين أولهما طارئ يجعله كئيبيًا، والآخر تجسيد حاجة تتبعه بلا نفور، وهذا أقصى ما يحتاج إليه.

تتوقف حركة دوراني الموجعة، تغزو النتوء الذي أرقد فيه، عتمة تتبخر بين مساماتها حرارة، تنفذ عبر مراوح لم تتوقف، لكن مسارات تصوراتي المضمرة ظلّت مشغلة.

أردتُ العودة إلى الركيزة الأولى المتقدة في ذهن الرجل، غير أنّ أجزاء جسدي بدت معطلة مثل نواة ميتة، تنتظر ضوءًا ضئيلاً يحرك مشغلها الذي جف ولا يقاوم الإغلاق.

نهض من كرسيه، وليس في وجهه تعبيرًا محددًا، شعرتُ بأنّ تجلياته فيها متغيرات، زمن مضى، وعادات منقرضة، وأمزجة مفطورة على الهشاشة، فيما كنتُ انعكاسًا لتقاليد متحضرة، ودرّبًا من دروب الخيال، أمتطي فرسًا، ملك مضطرب لا تسعه الجهات، فمازال يبحث عن صديق قديم، تختفي في طيات ثيابه رائحة التاريخ، لم أملك شخصية مميزة، ولا معالم واضحة، لقد شكّلتُ ظاهرة منفصلة، تزرع إشكاليات تغفل خلط اختراقات مباحة وغير

مباحة، شعور من مزيج لا يكتفي بالذوبان.

لا أعرف متى تستيقظ سيرة تشيع معطيات، تشقق طارئ يتكرر ويستدرجني نحو ظنون مستبدة، تقودني خارج محيط، يقتفي مسار جلجلة تغيّر حداد الرجل المكتتب، الذي يحاول ترويضى ضمن نسق الاستفراغ، فلا أحتمل المواجهة لذا تظهر في وجهي خطوطاً متلاشية تؤكد حقيقة اعتراضى.

يبدو نحن في مواجهة عقيمة، تحوي نزقى واستبداده الذي يحمل اضطراراً، ينكسر لاستجابة تنتظر خريطة، تنفصل من علاقة متردية.

كنتُ الأاحظه، وهو يتكلم مع صديقته، وقد تدلثت سيقانها بإهمالٍ :
- ذهبْتُ اليوم إلى المصرف.

- هل أردتَ سحب نقودٍ..؟

صمت ملقياً رأسه على كتفها، بين أن أحلم وأقص الحلم، تتناحر مسافات عليها الرضوخ لمنطق المتلقى، حاولتُ إيجاد طابع يدلني على صورة معينة تحسم معان محظورة، ربما تقودني إلى انتظار إشارات باهتة لرصد استغاثة تأويلات، تأبى التخلى عن التمييز؛ لتتعرف على ملامح الوهم.

قد يكون الخرف في تجاوبف رأسى، يشكّل اضطراراً يخفق مع سيلٍ، يخرج انعدام المشاعر الشائبة، ويستنكر أبعاد حقيقة تشترط صدقها من قول ما أراه.

كنتُ أحسبها مجرد شرنقة، تنسج مصدات كابوس، يعتريني بزخم،
يوقد انتظار متمهل، يرهبني خلسة، فح يبحث عن رابط، ينهار
تحت ترددات، صوت لا يكف عن سير ارتياب نبأ لا يستقر.

أرختُ سخرتي مفاصلها، وتثبت ريقى المتيسب بشك، ينهمر من
قدرتي التي تفصح عن تفتت فواصل خجولة، تنتقل عبر ثرثرة
تكسب خطيئة.

راودتني أفكار تأسيس لحظة مفعمة في سرد تفاصيل حركة الشفاه؛
لنبوح أسرار فكثُ شفراتها؛ لتنمو بانزلاق معبأ بتحذيرات تدق
معلنة انحسار الوقت.

ينهش الاستعجال شعور يمازح إطلالة غريبة، تعالج صدفه،
تتجاهل لوثة حماقة تتكرر بلا توقف.

يأتيني شارلمان مرتدياً لباسنا التقليدي، بيثماغه المرقط المربوط
فوق رأسه بعناية فائقة، وقف ينتظر الحافلة ممتعضاً، يفرك يديه
بنفاذ صبر بادياً على محياه، تقدمتُ صوبه، أفزعني صراخ صبية،
يحملون حقائبهم على ظهورهم، يتناقشون حول الدوري الأسباني
بحرقة، وزعيق يفصح عن غلاظة تفيض خشونة، عبارات بذينة.

تهدأ عبارات المجاملة هاربة خلف تراب الشارع الغارق بالحفر،
يتنكر ارتياب مفرط، يمارس عزل مشاعري المكتظة داخلي
بترتيبٍ متحير، الباص المتهادي لا يتنازل عن ملاحقة الركاب
المتوقفين تحت عري الشمس العائمة في صباح، يفرز افتراش
الأجساد لمساحات مطوية بأنفاس تتمم عباراتٍ مقدسة، ورغباتهم

النافرة بالحصول على رزق لا يفلت من أيديهم.

بقيتُ خواطري تحصي زخات كلمات، ما فتأت تسحق نظام يرافق صبري المسجون معي في مقعد السيارة، التي تطلق منبهاها في وجه كائنات الزحام.

ترجل شارلمان، تنفسْتُ الصعداء، لكنَّ إشارات تفتح عوالم حواسي، تفتح مقاييس، تحتوي أمرًا لا يقبل المناقشة، ويتمعن بمواكب امتلاك معاناة لا تنتهي بسهولة.

تناحرتُ اليوم ساعات الدوام الطويلة، فقد جاء الموظف الذي يشاطرنِي الغرفة حزينًا؛ لأنه اكتشف أنَّ أمه أقامت علاقة جنسية مع الضيف الذي تجاوز الأربعين، والمقيم معهم منذ أسبوع، كان يدعي أنه صديق والده المقيم في ليبيا.

أدق بيدي على مفاصلي الموجوعة حين عدتُ سيرًا من الساحة الواسعة، التي تنتصب وسطها ساعة جدارية كبيرة متكئة على معالم بناية قديمة الطراز، تحيط بها من ثلاث جهات بنايات مرتفعة، عند الجانب الشرقي ينغرز المزار بقبته الزرقاء، تسوره كتل الكونكريت، صورة تشبه ذكريات تحتفظ داخلها، استرخاء يستقر مع مجرى الهواء المتنقل من أعالي العمارة المطلية بلون، تبني نحو سفوح ملامح السحن الغاطسة بصياح الباعة الخافت في مثل هذه الظهيرة.

تبدلتُ الصورة، كان ثمة أناس يتصارخون بعويلٍ مفجع، وهم يمرون بساحبة زراعية تستخدم لنقل القمامة، أحسستُ أنَّ أعضائي

تسيل على الرصيف، وتباغتني بحة تتصل بتلاصق، يحرك حواسي الخاملة، رجفة تلمس رغبتي الحسية، إنها امرأة سمراء تطلب منّي الاقتراب منها، قد تكون آمال لكنها تحمل نفس الملامح، قد تكون هي.

شاكست رغبتي، هربت داخل الباص ذي الطابقين بلونه الأحمر، أعتصر انزلاقات سخطي المتبدد لعدم قدرتي تجاوز محنة التردد.

مذاق العودة متأخرًا إلى البيت يشعرني بالغثيان، بقيت ممددًا على فراشي بملابسي الداخلية، أراقب هبوط غيمة النعاس بخدر، تقترب منّي فقاعة قلق مبهم، خيال يراوغ التماع، نور يأتيني، صوت يشبه غمامة، تكرر حروف الشهادة لا يجب إهمالها، ترن كدقات لا يخبو إيقاعها، فهي تفترس اهتمامي بهدوء، يأتي شارلمان حاملاً سيفه اللامع لم تكن لديه رغبة في محاورتي.

في صباح يوم الجمعة، وقفت أمام باب دارنا، أنتظر مجيئه، حضر حاسر الرأس، توقعته منه أن يقول شيئاً، لكنه بقي منقبضاً في ظل عزلة لم أستطع الوصول إليها، انتفخت داخلي حكاية موته.

حملت ضجيج شروده محاولاً الاستناد على الحائط بطابوقه النافر مثل قبضة طين جاف، أردت التحدث قبني بالكلام:

- أعرف ما ستقول.

تجنبت فتح موضوع الرحيل، ورحت أسرد له معاناة زميلي في العمل، لكنه فاجأني بقوله:

- لا رغبة لدي بالبقاء.

ضغط الهواء على صدغي، فأبعد عني حاجز اصطفاق نقطة حذرة، تسقط على رأسينا المتعثرتين بدواعي، تخلع إغراءات ترتد في اختلاس الأفكار المتطايرة.

راودتني خفقة مشاعر مستلبة، قصصت عليه حلمي الذي ما انفك يراودني، سمعتُ نشيجه، حاول أن يشكك في عناصر الرؤيا لكني جزمْتُ له بحقيقة ما يسمعه، كثر بكأوه وراح يندب أيامه، دخل بعد أن أغلق الباب بعناية، بعدها سمعتُ نواح يأتي من داخل الدار، أدركتُ أنني أخطأتُ، خمنتُ أنه سينتظر انقضاء هذه الليلة؛ ليتأكد ما قلته له، ترك الجدار أثره على قفائي، انهارتُ هواجس تسحب الهواء من رئتي، شعرتُ بالاختناق، سرتُ تجوس مفاصلي رعشة تلاحق ميلي الفطري للثرثرة.

عند الصباح، تمَّ تشييعه وفي الطريق إلى العمل، استوقفتني رجل أشقر الشعر بعينيه الملونتين ومعه شخصان، اتهمني باغتصابه، مزق تبدد صورة زميلي الموظف، الذي حضر لزيارتي في الموقف، ابتهاجه الفج فقد علم أن والدته حامل في الشهر الثالث.

أخيرًا توصلتُ إلى فكرة، طمستُ آثار أحلامي التي كانت حافرًا للإثارة التي أودعتني أسير انعكاس متباين، يتغلغل في وساوس تقضم اهتزازات، رافقتُ ليالٍ تخلع تلاشي خطوات متعثرة، وترنح يرمق مراوغة نداء يتلذذ بإدانة مخاوف مشروعة، لكن لا يمكنني الرجوع؛ لأنه لا توجد شجرة بانتظاري.





المؤلف في سطور

-
- مواليد بغداد .
-
-
- رائد القصة التفاعلية وقد ذكره الروائي المصري سيد نجم بكتابه
حد رواد هذا المجال في الوطن العربي.
- له:
- رواية:
- صلاة الليل : مجموعة قصصية.
- همس الدراويش : مجموعة قصصية.
- :
- وما هوك: رواية.



(+2) 02 27270004 / (+2) 01288890065

www.shams-group.net